جائزة خليفة التربوية
Khalifa Award for Education

رواية لليافعين

أرضُ الحِكايات

تأليف : أسماء زيتون

جائزة خليفة التربوية
Khalifa Award for Education

أرضُ الحِكايات

رواية لليافعين

تأليف
أسماء زيتون

فاز هذا العمل
في مجال التأليف التربوي للطفل
الدورة السادسة عشرة 2023

للإنسان قدرة عظيمة على اختراع الأشياء التي تُبقيه حيًّا...

لذلك أبدع في سرد الحكايات!

جائـزة خليفـة التربـويـة
Khalifa Award for Education

مطبوعات جائزة خليفة التربوية	الكتاب رقم (50)

موافقة المجلس الوطني للإعلام رقم : MC-03-01-7340753

رقم التصنيف الدولي : 978-9948-762-05-8

جميع الحقوق محفوظة ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل كان بما في ذلك نسخ الصور أو استخدام الوسائل الإلكترونية دون موافقة كتابية من أصحاب حقوق الطبع أو النشر وكل من يتصرف بما يخالف ذلك سيكون عرضة للمساءلة القانونية، والمطالبة بالأضرار الناجمة عن ذلك.

جميع الحقوق محفوظة للأمانة العامة لجائزة خليفة التربوية

أبوظبي - دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف : +971244959442

ص.ب : 33088

الموقع الإلكتروني : www.khaward.ae

جائـزة خليفــة التربـويـة
Khalifa Award for Education

كلمة

تواصل جائزة خليفة التربوية رسالتها في إثراء الميدان التربوي بالمعرفة من خلال تنفيذ توجيهات سمو رئيس مجلس أمناء الجائزة بطباعة الأعمال الفائزة في كل دورة بحيث تكون متاحة لمختلف المستويات التنفيذية في العملية التعليمية من قيادات مدرسية، ومعلمين، وإداريين، وغيرهم من ذوي العلاقة، بما يعزز الخبرات العلمية والتطبيقية، وينهض بالأداء، ويرفع معدلات الجودة لمخرجات العملية التعليمية.

وفي هذا الصدد يسعدنا أن يكون هذا أحد الأعمال التي تم طباعتها وطرحها في الميدان التربوي، آملين أن نحقق منه الفائدة المنشودة.

والله الموفق.

الأمانة العامة لجائزة خليفة التربوية

مقدمة

لكلٍّ منَّا طريقته الخاصة في التعامل مع ما يمرّ به من أحداث، سعيدة كانت أم حزينة.

في هذه القصة سنتعرَّف على بطلين يافعين يَمُرَّان بتجارب صعبة في الحياة، ورغم ذلك فهي ستكون سببًا في اكتشافهما عوالم حيوية ومُلهمة داخلهما، تستخرج طاقاتهما الكامنة فيهما، وتدفعهما إلى نشر السعادة.

لقد كانت القراءة هي البوابة العظيمة للدخول إلى هذه العوالم التي منحتهما جرعة وافرة من الخيال، فاقتحما عالم القصص والحكايات، وخاضا فيه عديد المغامرات، وشاركا أبطال القصص الأصلية في تحسين أحداث قصصهم، فأصبحت أكثر تشويقًا ومتعة وفرحًا.

وهذه دعوة مفتوحة لنشاركهما في المغامرات، بل نبدع مغامراتنا الخاصة.

هيا بنا...

حدث كلُّ شيء بسرعة فائقة، لم أستطع رؤية السيَّارة المسرعة القادمة من جهة اليسار، كنتُ قد بدأت بعبور الشارع العريض ولم أصل إلى منتصفه بعد، عندما طارت السيَّارة من مَسْرَبِها باتِّجاهي، وكأنَّها تتقصَّد ملاحقتي. لم تُتَحْ لي الفرصة لألمح لونها، لكنَّ تلك الأجزاء الصغيرة من الثانية كانت كافية للغاية لتسبّب ضررًا هائلًا لجسدي، تمنَّيت معه أحيانًا لو أنَّني مِتُّ في ذلك الحادث.

بعد استفاقتي من الغيبوبة التي أخبروني بأنَّها استمرَّت عدَّة أيام كنت أستلقي بلا حولٍ منّي ولا قوَّة على سرير المستشفى، محاطًا بالبياض من كلّ جانب، فالوسائد والأغطية والجدران غارقة كلها باللون الأبيض، حتى سقف الغرفة كان أشبه بفضاءٍ لا محدود من مربَّعات بيضاء متراصَّة. استفزَّني اللون الحادُّ في البدايات، ولكن مع مرور الوقت لم أعُد أكترث له.

تحضرُ أمّي لزيارتي، فتُسعدني الألوان التي ترتديها، لقد أخبرتها من قبلُ عن معضلتي التي بدأت تتشكَّل مع اللون الأبيض، فقرَّرتْ أن تُدخل البهجة على قلبي بطريقتها الخاصَّة رغم أنها لم ترتدِ إلا الألوان القاتمة منذ استشهاد والدي قبل أعوام عديدة. لا أدري إذا كنت أسعدُ لأنها قرَّرت أخيرًا الخروج من سجن القواتم الذي وضعت نفسها طواعيةً فيه، أم أشفق أكثر على وضعي الحالي الذي كان سببًا في تحرُّرها من ذلك السجن.

أريد التقلُّب في فراشي لكنني لا أستطيع، فحسب أقوال الطبيب عليَّ أن أبقى هادئًا إلى أن تلتئم جراحي وتزول التورُّمات التي تضغط على أعصابي، وإلَّا فإنني قد أسبِّب شللًا دائمًا لأطرافي السُّفلى. ثبَّتني الممرِّض إلى السرير بواسطة أربطة طبية؛ رباط أعلى الصدر، وآخر أسفله، قال إنها تقلِّل من حركتي المفاجئة، فلا أسبب الأذى لعمودي الفقري دون قصد.

أُصبح كشرنقةٍ بليدة، يظهرُ منّي رأسي وذراعاي فقط، ولا أتحرّك إلا عندما يأتي الطبيب برفقة ممرِّضَين اثنين للإشراف على تحريكي، كي لا أصاب بقُرحة الفِراش، نتيجة بقائي الطويل فيه.

أضحك لا إراديًّا، ثم يُداخلني الهمُّ والغمُّ، فرغم حرص الطبيب في تعامله معي لكنه غير متفائل بشفائي التام، ويشكِّك في قدرتي على العودة إلى حياتي الطبيعية حتى مع كل تدابيره الوقائية الصارمة.

أنظرُ من النافذة نحو غروب الشمس الجميل، للمرة الأولى في حياتي آخذ وقتي في تأمُّله، أفكِّر في عدد المرات التي نظرت فيها نحو الغروب ولم أره فعلًا، فأكتشف أنني فوَّتُّ رؤية هذا الجمال كل يوم، ليأتي اليوم الذي أراه فيه ولا أستمتع به حقًّا، فكلُّ ما يشغل بالي في هذه اللحظة تحديدًا هو السؤال المَقيت الذي يتكرر داخل تلافيف دماغي بلا انقطاع، ويكاد يقتلني: من بين كل فِتية العالم المستهترين أو حتى الحريصين، لماذا حصل لي هذا الحادث؟ لماذا أنا بالذَّات؟

يتنامى داخلي شعور بالحنق والغضب، يزداد مع مرور الأيام التي أقضيها هنا، بين جدران هذه الغرفة الكئيبة، محاطًا بكل تلك الأجهزة التي تُصدر أصواتًا مزعجة على مدار الساعة، خصوصًا عندما يسيطر ذلك السؤال على تفكيري، فأَنفر من كل شيء حولي، وأتصرَّف أحيانًا بطريقة مزعجة أمام الجميع، حتى مع أولئك الذين يقضون وقتهم في مساعدتي، بل في خدمتي حرفيًّا.

لم أكن هكذا من قبل، ربما كانت تراودني أحيانًا بعض مشاعر الحزن والغضب كلما اعترضتنا -أنا وأمي- مشكلة تحتاج إلى وجود أبي ليحلَّها، أو إذا أردتُ مساندته، ليشعرني بالطمأنينة وبأنني سأتخطى كل الأوقات الصعبة، لكنني لم أكن مُزعجًا أبدًا، بشهادة كل من يعرفني.

إلا أنَّ ما حدث لي مؤخرًا، وما عانيته طوال حياتي من صعوبات وفقدٍ لأبسط ما يملكه أيُّ فتى في عمري أخرَجَ هذه المشاعر المكبوتة في صدري إلى السطح، وسرعان ما انفجرت في وجه الجميع، ووالدتي تحديدًا.

عمري ستة عشر عامًا، مُجتهدٌ في دروسي، وَلديَّ رغبة عارمة في التعلُّم، أثقِّف نفسي بنفسي، فأنا قارئٌ نَهِم، وأطمح إلى أن أصبح طيَّارًا في المستقبل، حتى أنني قطعتُ وعدًا لوالدتي بأن أُريها العالم كله كما لم تره من قبل؛ فهي لم تسافر ولو مرة واحدة، بل لم تخرج أبدًا من المدينة التي وُلِدَت فيها.

أتنبَّه إلى أنَّ الحادث وقع بعد بلوغي السادسة عشرة بساعات، هذا الرقم السحري الذي طالما اعتقدت أنه سيكون السِّنَّ المناسبة للاستقلال وانتهاء الاعتماد على الآخرين، إلا أنني لم أعد قادرًا حتى على قضاء حاجتي وحدي. أضحك قليلًا، ثم يعلو صوت ضحكاتي في المكان، فيهرعُ الممرض نحوي يحاول تهدئتي، فما أفعله سيُسبب الضرر لي. أستجيب له وأتوقَّف عن الضحك، لكنني أغرق في موجة شديدة من البكاء.

يحين موعد زيارة والدتي لي، تُطلُّ من الباب باسمة، هي كذلك دائمًا رغم كل التعب الذي أعلم أنها تشعرُ به، أحاول مبادلتها الابتسام لكنني لا أستطيع؛ فآثار الدموع التي ذرفتُها صباحًا لا تزال رطبةً على خدِّي.

تجلس أمي إلى جواري، تحاول بدء حوارٍ معي، لكنني لا أجعلُ الأمر سهلًا عليها، أقول لها

تلميحًا وتصريحًا أنها سبب البؤس الذي أنا فيه؛ فإن لم يكن الحادث فإنها حياتي السابقة بكل صعوباتها. تبقى أمي صامتة لفترة لا تفعل شيئًا سوى التحديق في الأرضية، تنهضُ وهي تقول لي بصوت تكتنفه الخيبة من تصرفاتي التي أصبحت لا تُطاق: تذكَّر أننا معًا في هذا الأمر، أتألَّم كما تتألم، وأفرح عندما تفرح، ولن أتركك أبدًا، نحن في المركب نفسه يا بُني، لكنك لم تستوعب ذلك بعد.

ثم تغادر غرفتي وهي حزينة.

مرَّ أسبوعان منذ أن أخبرني الطبيب بأنَّني ربما لا أعود إلى حياتي السابقة. تنتابني الكوابيس أحيانًا، فأجد نفسي مُمدَّدًا فوق سريري الأبيض وقد نبتت من أطرافي أغصان شجرة ضخمة، لا أستطيع التَّأكُّد إذا كنتُ أنا قد تحوَّلتُ إلى هذه الشجرة، أم أنها بذرة ظنَّت أني تربة مناسبة للإنبات؛ نتيجة ثباتي الطويل في مكاني بلا حركة، فنَمَت وتطاولت فروعها في السماء. أستيقظ مفزوعًا وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وهلوساته المقيتة.

تصلُ أمي كعادتها، في الموعد نفسه كل يوم، لكنها تبدو متحمِّسة هذه المرة أكثر من المعتاد، قالت لي: خمِّن ماذا وصلك اليوم عبر البريد؟

أفكِّرُ ما إذا كان هناك أشياء تهمُّني حقًّا قد تصلني من أي مكان، لكنَّ كل شيء يبدو ضبابيًّا في ذاكرتي، فتبادرني والدتي قائلة: مجموعة الكتب التي طلبتُها هديَّةً ليوم ميلادك، المجموعة الكاملة.

تعلو وجهي ابتسامة، ربَّما لأول مرة منذ إصابتي، أُمسك الكتب بين يديَّ وأقلِّبها بحرص وتمعُّن، أُقرِّبها من وجهي لأراها جيدًا، حكايات السندباد، رحلات جوليفر، أحدب نوتردام، فرانكشتاين، الشاطر حسن، وغيرها من القصص والروايات العالمية والعربية. تبدو طبعاتٍ أصلية، يُشعرني ملمس الورق بالحماس قليلًا، وأُثني على الأغلفة الملونة الجميلة، لكن يُعاودني ذلك الإحساس البائس بالعجز، فتتلاشى ابتسامتي، وأزيح الكتب جانبًا، قائلًا لأمي: شكرًا لك.

لم تكن تلك أفضل (شكرًا) أقولها في حياتي، لكنَّها الأفضل منذ إصابتي، ذلك ما جعل أمي ترتاح قليلًا إلى أنّ نفسيتي قد تكون قابلة للتحسُّن، ولو بشكل بسيط.

أسألها وأنا أتصنَّع الهدوء، وداخلي لا يزال يمورُ بالأسئلة: لماذا يحدث كل هذا لي؟

تميلُ عليَّ وتُمسك يدي التي لا تزال تتعافى من بعض الرُّضوض: لا أعلم يا بني، لكن الله اختار لك هذه الحياة، هي نصيبك من الدنيا، وقد علَّمنا ديننا الصبر على البلاء، وما فائدة التعلُّم إذا كنَّا لن نطبِّق ما تعلَّمناه عندما يحين وقت الاختبار؟

أقول بِنَزَقٍ: ما الحكمة من أن يُوضع فتى طموح وقوي مثلي في كرسي متحرك بقيَّة عمره؟ وأن تتبخَّر أحلامي كلُّها في أن أصبح طيَّارًا؟

تُقبِّل أمي كفِّي وتقول: الله أعلم، ربّما لن نتمكَّن من إدراك السرّ وراء ما يحدث لنا، وقد تتجلّى حكمة الله لنا في الوقت المناسب، فلا تتعجَّل، ولا تسمح للشَّيْطان بأن يعبث بعقلك، وأن يُفقدك ثقتك وإيمانك؛ فالأمل ما زال كبيرًا في مرور هذه الأزمة دون أن تترك آثارًا في جسدك.

في الحقيقة، لقد اهتزّت ثقتي منذ اللحظة الأولى التي صدمتني فيها علبة الصفيح تلك، فحبستني هنا داخل هذا الجسد المحطَّم، في حين خرج ذلك السائق المستهتر بخدوشٍ لا تُذكر، ليُكمل العبث بحياة الآخرين. أفكِّر في ذلك ولا أجرؤ على النُّطق به أمام أمي؛ فقد أخفتها بما يكفي من أفكاري القَلِقة.

تجلسُ أمّي إلى جواري، تختارُ كتابًا وتبدأ بالقراءة لي. يُذَكِّرني ذلك بجلسات القراءة عندما كنت طفلًا، كانت تقرأ لي قصةً قبل النوم، هذا النشاط المتكرِّر كان من أمتع ما يمرُّ بي خلال اليوم.

أستيقظ بعد فترة قصيرة، لا بدَّ أنني غفوت أثناء الاستماع إلى الحكاية، ما زال صوت أمي ينسكب دافئًا في أذنيَّ، كما كان في طفولتي، أحيانًا كانت تغيِّر نبرة صوتها تماشيًا مع أحداث القصة، فتبثُّ الروح في شخصياتها، وتنقُلني إلى عالمها لأشعر بأنني أعيش بينها حقًّا.

أحاول التململ في فراشي، لكنَّني لا أتحرَّك، أتذكَّر الأربطة الطبية التي تثبِّتني إلى السرير، فأهدأ قليلًا، إلا أنَّ شعورًا بعدم الراحة يتملَّكني.

أتفاجأ بشاب قوي ووسيم يقفز من النافذة ويستقرُّ في غرفتي، يُدهشني ذلك، لكن ملابسه الغريبة تُدهشني أكثر، وكأنه قادم من قديم الزمان، يسألني الشاب بريبة: أين أنا؟

أردُّ بارتباك: أنت في غرفتي!

ينظر الشاب حوله باستغراب ويقول: ما هذه الغرفة الغريبة؟ وما هذه الأشياء التي تحيط بك وتُصدر أصواتًا مزعجة؟ لا بد أنها كائنات شريرة أرسلها وحش الغابة لتُمسك بي.

أنظر إليه للحظات، ثم أبدأ بالضحك: كائنات شرّيرة.. هاها... وحش الغابة.. هاها.

يقف الشاب وتظهر على ملامح وجهه آثار الضيق والغضب، يستلُّ خنجرًا كان يخفيه بين طيَّات ثيابه ويصيح بي: قُم وقاتلني أيها الفتى، قاتل كالرجال وتوقَّف عن هذا الضحك حالًا.

حسنًا، الآن بدأ يخيفني هذا الشاب الغريب بحق، لا بد أنه مجنون فرَّ من مكان ما!

يُجيبني الشاب وكأنه يستطيع قراءة أفكاري: لا، لستُ مجنونًا، أنا الشاطر حسن،

ألم تسمع بي؟

أردُّ عليه بسخرية: نعم، أنا أعرف الشاطر حسن، لكنَّه حكاية شعبية قديمة، وليس شابًّا أحمقَ يقفز إلى غرف الناس ويقتحم خصوصياتهم.

ينزعج الشاطر حسن ويتحرك في الغرفة جيئة وذهابًا وهو يقول بعصبية: أنا حكاية شعبية؟ أنا الذي واجهت أعتى الوحوش والكائنات الشريرة، وحاربت اللصوص الجشعين، تقول إنّي قديم؟ وماذا أكون أنا الواقف أمامك أيها الذكي؟ ها؟ أجبني!

أتسمَّر وأنا أحدِّق به، ولا أجدُ جوابًا، أحاول الخروج بفكرة ما عن سبب وجود شخصية خيالية غاضبة في غرفتي، ثم أتذكَّر أنَّ أمي كانت تقرأ لي حكاية الشاطر حسن قبل أن أنام.

نعم هذا هو السبب، لا بد أنني غفوت، وهذا الحلم نتيجة سماعي القصة قبل أن أنام، لكنَّ كلَّ شيء يبدو حقيقيًّا إلى حدٍّ مقلق.

تنبَّهت وإذا بالشاطر حسن يبادلني التحديق، نسيت أنه قادر على قراءة أفكاري، لكنَّه تبسَّم ببلاهة وقال: وأين ذلك الكتاب السحريُّ الذي يتحدَّث عنِّي؟

نظرتُ حولي باحثًا عن الكتاب، فتفاجأتُ بفتاة لم أرها من قبل تحملُه بين يديها، وتقرأُ فيه، ثم توجِّه كلامها نحو الشاطر حسن: توقَّف عن إزعاج هذا الفتى المسكين يا شاطر حسن، ألا ترى أنه خائف منك؟

فيرد الشاطر حسن بارتباك: ستُّ الحُسن، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هذا المكان خطر!

- لا أرى خطرًا هنا سوى خنجرك الصغير هذا، هيا أبعده عن وجه الفتى المسكين.

أنظرُ نحوها بامتنان وأقول لها: أشكرك حقًّا على لُطفك، ولكن ما زلت لا أعلم لماذا أنتما هنا، وكيف وصلتما إلى غرفتي!

يخفي الشاطر حسن خنجره في حزامه، ثم يأخذ الكتاب من ست الحُسن ويحاول تقليب صفحاته لكنه لا يستطيع.

يقول الشاطر حسن: هذه الصفحات ملتصقة ببعضها، كيف أعرف ما سيحدث في الحكاية؟

أردُّ محتارًا: ربَّما عليك أن تعيشها.

تصيح ست الحُسن بحماس: نعم أظن أن ذلك صحيح. أحسنت أيها الفتى... بالمناسبة، لم تخبرنا ما اسمك.

أقول مبتسمًا: فارس.

ست الحُسن: اسمٌ جميل يا فارس، وأرجو أن يكون لك من اسمك نصيب.

ينشرحُ صدري لكلام ست الحُسن، وأدعو الله أن يستجيب لها، فأكون فارسًا في أخلاقي، وتصرُّفاتي، وهِمَّتي.

يقترب مني الشاطر حسن ليعطيني الكتاب، لكنَّه يتوقَّف فجأة عندما تبدأ الغرفة بالاهتزاز بقوَّة، وكأننا نتعرَّض لزلزال.

يصيح الشاطر حسن: إنَّه الوحشُ، لا بدَّ أنه قد تتبَّع رائحتي وعرف مكاني، علينا أن نختبئ، هيَّا اتبعاني.

أقول له باضطراب: ولكنني مصاب ولا أستطيع أن أتحرَّك، كما أنني مقيَّد إلى سريري.

تنظر إليَّ ست الحُسن وهي تقول: عن أيِّ قيود تتحدَّث؟ ثمَّ إنك لا تبدو لي مصابًا.

أتفقَّد نفسي، أين اختفت كل تلك الضمادات والأربطة الطبية؟

لم أستغرق وقتًا طويلًا في التفكير، فالغرفة تهتزّ بشكل أكبر وأعنف؛ ممَّا يشير إلى أن الكائن الذي يسبِّب هذه الاهتزازات بات قريبًا جدًّا.

بدأت اللوحات التي تزيِّن الحائط بالتأرجُح، حتى أنَّ الساعة المعلَّقة قُبالتي سقطت على الأرض وتحطَّمت، فتناثرت أجزاؤها في كل مكان.

يشدُّني الشاطر حسن من ذراعي لينتشلني من صدمتي هذه التي سبَّبت لي جمودًا في الحركة، فأتناول قصة الشاطر حسن بسرعة، ونقف جميعًا أمام باب الخزانة التي أضع فيها حاجياتي، أقول للشاطر حسن: كيف سيحمينا هذا الباب المعدني الضعيف من وحشٍ قادر على زلزلة الأرض من تحتنا؟

يضحك الشاطر حسن ويقول: يبدو أنَّك لا ترى أبعد من أنفك، افتح الباب الآن، وسترى.

لا أفهم شيئًا، لكنني أفعل ما يطلبه مني، أفتحُ الباب فيقفزُ الشاطر حسن إلى الداخل ثم يختفي، تتبعه ست الحُسن بخطواتٍ رشيقة، أنظر جيدًا فلا أستطيع تبيُّن شيء من الظلام الدامس، تبدو الخزانة من الداخل أكبر وأعمق ممَّا هي عليه من الخارج، أين ذهبت كل حاجياتي؟

تمتدُّ يدٌ من خلال العتمة وتجذبني إلى داخل الخزانة، ويُغلَقُ الباب خلفي.

يضيء الشاطر حسن مَشعلًا، يذكِّرني بأفلام المغامرات؛ فهو خشبة أسطوانية في رأسها قطعة قماشٍ ملفوفة بإحكام ومغموسة في الزَّيت؛ لكي تستمرَّ النار في التوهُّج فترةً أطول.

حسنًا، سأتوقَّف عن التفكير من أين تأتي هذه الأشياء كلها وسأركِّز على النجاة من هذا الموقف فقط.

يقطع لحظات تأمُّلي صوت الوحش الذي بات قريبًا جدًا منَّا، أسمعه يعبث بمكونات غرفتي، يحطِّم كل الأشياء الموجودة فيها، يا إلهي، ستوبِّخني أمي، كيف سنغطِّي تكاليف هذا الخراب كله؟

يقف الشاطر حسن إلى جواري، يتنفَّس بعمق وكأنه يستجمع شجاعته كلها ليواجه هذ الموقف، أتعجَّب منه، لكنَّه يُجيبني كالعادة دون أن أفتح فمي:

الشجاعة ليست بالهجوم على المخاطر يا فتى، بل أن تتماسك إذا اضطُررت أن تواجهها؛ لتكون قادرًا على حماية نفسك والاهتمام بأحبابك.

أتأمَّل وجه الشاب وهو يتربَّص بالباب الذي يفصل بيننا وبين الموت، وأعلم يقينًا أنّه سيكون قادرًا على حمايتنا ولو كلّفه ذلك حياته.

يهتزُّ الباب بشدَّة، لا بد أنَّ الوحش قد عرف مكان اختبائنا من تتبُّع رائحتنا؛ فهو يملك حاسة شمٍّ قوية. يستعدُّ الشاطر حسن وست الحُسن للمواجهة، فيثبِّت قدميه بالأرض، ويرفعُ خنجره بمحاذاة وجهه، ثم يدفعني إلى الخلف بيده الأخرى لأكون بعيدًا عن الخطر قدر الإمكان. تتقدَّمُ ست الحُسن لتقف إلى جواره تمامًا، وتتناول منه شعلة النار وتلوّح بها كأنها سلاحٌ فتَّاك. تبتسم لي وتقول: لا تنسَ مغامرتنا الصغيرة هذه يا فارس.

ينخلع الباب من مكانه كأنَّه ورقة لا قيمة لها، يطل أمامنا وجه الوحش المخيف، فيصرخ الشاطر حسن بصوت عالٍ يُخيفني ويُخيف حتى الوحش، فيتوقَّف لوهلة في مكانه قبل أن يقرر الهجوم علينا.

في هذه اللحظة أتنبَّه إلى أنني ما زلت أحمل الكتاب المفتوح بيدي، أغلقه وأمسكه بكلتا يديَّ حتى أستخدمه سلاحًا إذا تطلَّب الأمر. لكنَّ ضوءًا باهرًا يسطع منه فجأة، ويختفي كلُّ شيء حولي، تمامًا كما ظهر.

أغمض عينيَّ غير مصدِّق ما حدث معي، ثم أفتحهما ثانية، فأجد أمي تجلس إلى جواري وقد غَلبها النوم في كرسيِّها، والكتاب لا يزال في حِجرها، أمدُّ جسدي لأمسك الكتاب، ينتابني الفضول لأعرف ماذا حدث مع الشاطر حسن وست الحُسن، وكيف تنتهي حكايتهما. أفتح الصفحة التالية فأجد الشاطر حسن يحمل خنجره في مواجهة الوحش، بينما تلوّح ست الحُسن بالنَّار في وجهه فتمنعه من الرؤية، وفي الصفحة التي تليها يكونان واقفيْن بأمان ويبتسمان، بعد أن زال الخطر. في الصفحة الأخيرة، كان الشاطر حسن يُهدي فتى -يبدو شكله مختلفًا عنه- خنجرًا صغيرًا تذكارًا. يَلفتُ نظري وجود خنجرٍ صغيرٍ على الطاولة بجواري، فألتفتُ نحو الكتاب، أحدِّق في الرسم أكثر، أقرِّبه من عيني وأقول: إنَّ هذا الرسم يُشبهني حقًّا!

أطلب من أمي فتح الستائر في غرفتي، أشعر بالغبطة هذا الصباح، وكأنَّ حُلم الأمس -أظنه حُلمًا- قد ساهم في تبديد شيء من العتمة المستقرَّة في روحي، وجعلني أحسُّ بأن الأشياء الجميلة قد تحدث لي حتى في أكثر الأوقات صعوبة.

في هذه الأثناء، يدخل بعض الممرِّضين وهم يَجرُّون سريرًا طبِّيًّا ذا عجلات، ويضعونه بمحاذاتي، باتجاه الحائط المقابل، تفصلُ بيننا مسافة قصيرة، إضافة إلى ستارة بيضاء يمكن إغلاقها عند إجراء الفحوصات الروتينيَّة مثلًا، للحفاظ على خصوصيَّتنا.

بعد أن تستقر أمور رفيقي في الغرفة يدخل الطبيب ويتوجَّه نحوه وهو مبتسم، أتابع ما يحدث بصمت، ولا مبالاة تقريبًا.. لولا أنَّني لاحظت شيئًا غريبًا.

يسأل الطبيب: كيف يشعر بطلنا اليوم؟

يقول ذلك وهو يحرِّك يديه ويفحص المريض بشكل روتيني وسريع.

يردّ الفتى بثقل: الحمد لله، أنا بخير.

تلفت انتباهي ابتسامة الفتى، تبدو مشرقة للغاية رغم إحساسي بأنه يرسمها على وجهه بمشقَّة.

تجري الأمور كالمعتاد، الرُّوتين نفسه، يمرُّ الطبيب ليطمئن أن كلَّ شيء عندي يسير على ما يرام، وينتشر الممرضون للقيام بالفحوصات اللازمة ومتابعة مقاييسي الحيويَّة، ويحدث الشيء نفسه لزميلي في الغرفة الآن، أخضع مُستسلمًا للروتين الممل، لكنه لمصلحتي كما يقولون كلّما اشتكيت منه.

تضع أمي الكتب في متناول يدي لكي أقرأ منها إذا رغبت، توصيني بنفسي جيدًا، وبجاري أيضًا، يُخيَّل إليَّ أنَّها صارت أكثر اطمئنانًا لوجود رفيق معي يسلِّيني. تودِّعني وهي تَعِدُني بالعودة لاحقًا بعد أن تُنجز بعض المهام الضرورية، ثم تغادر المكان.

تميل الشمس إلى الغروب مجدَّدًا، أصبحت مراقبة حركة الأشياء من حولي تسلية جيدة تساعدني في قضاء الوقت.

في هذا المكان، وبعد مغادرة الزُّوَّار -وغالبًا هي أمي فقط- أقضي معظم وقتي في فعل شيئين اثنين، النوم، أو الاستسلام بين أيدي الممرّضين وهم يحاولون قياس درجة حرارتي وضغط دمي، أو تخليصي من السائل الكريه الذي يتجمَّع في كيس معلَّق أسفل السرير، أو قيامهم بتنظيف جسدي بقطع من الإسفنج مغموسة بالماء الدافئ والصابون، يمرِّرونها على جسدي بالتَّتابع؛ لأنني ما زلت غير قادر على العناية بنفسي كما يجب.

لذلك تبدو فكرة وجود الكتب قريبًا منِّي أمرًا جيدًا؛ فأنا أحتاج إلى الخروج من هذا الفضاء الكئيب إلى كون أوسع وأرحب.

أحتار بين العناوين التي وضعتْها أمي، أحلّ تلك المعضلة بطريقة سهلة؛ أغمض عينيَّ وأختار كتابًا دون أن أرى ما اخترته، ثم أفتحهما. هذه الطريقة جعلت كتاب رحلات جوليفر يستقرُّ في حجري.

أُقلِّب صفحات الكتاب بين يديَّ، وأتفاجأ بأنَّ هناك رحلات لجوليفر لم أسمع بها من قبل؛ فالقصص التي كنت أقرؤها في صغري تتحدَّث عن رحلتيه إلى بلاد الأقزام وبلاد العمالقة فقط، بينما هناك رحلتان إضافيَّتان تم تجاهلهما تمامًا.

يتململ الفتى في السرير المجاور، ثم يفتح عينيه وينظر نحوي مباشرة، فأرتبك وأخجل منه، وتنطلق عبارات الاعتذار من فمي تِباعًا: أعتذر منك، ربَّما أزعجتك الإضاءة، وصوت تقليب الصفحات.

يبتسم الفتى ويجيب: لا عليك، أمضيتُ معظم الشهور الماضية نائمًا، لا بأس ببعض اليقظة الآن.

أتعجَّب من جوابه، لكنَّه لا يترك لي مجالًا للانغماس في أفكاري الخاصة، فيكمل قائلًا: اسمي حسن، ما اسمك؟

تنتابني موجة ضحك وأنا أردد: حسن؟

يستغرب حسن من ضحكي لكنه لا يُعلِّق بشيء.

فأقول وأنا ما زلت أغالب ضحكاتي: اعذرني مرّة أخرى، لو علمت ما حدث معي أمس لضحكت أنت أيضًا. بالمناسبة، أنا فارس.

- أهلًا يا فارس.

يصمت الفتى منتظرًا أن أكمل له سبب ضحكي، فلا أجد طريقة أفضل من الإمساك بكتاب الشّاطر

حسن ليرى العنوان بنفسه.

- انظر يا حسن، كنت أمس أستمع إلى أمي وهي تقرأ لي من هذا الكتاب، ثم غفوتُ أثناء ذلك، وإذا بالشاطر حسن وست الحُسن يقفزان إلى غرفتي، وأمضينا نحن الثلاثة يوم أمس ونحن نهربُ من الوحوش؛ لذلك ضحكت لهذه الصدفة الغريبة، أن يرافقني حسن حقيقي في غرفتي.

يبتسم حسن ويقول: نعم، إنها صدفة غريبة، أرجو ألا تطاردنا الوحوش، فأنا كما ترى لا يمكنني الحركة، فما بالك بالركض والهرب بعيدًا.

أسأله حينها بشكل عابر: هل تعرَّضت لحادث مثلي؟

فيجيبني مبتسمًا: لا مع الأسف، أنا لديَّ حالة مَرضيَّة خاصة، سبَّبت لي منذ عدَّة أعوام ما يشبه الشلل التدريجي أو ضمور العضلات، ورغم أن هذا المرض نادر الحدوث عند الأطفال لكنه كان من نصيبي، تخيَّل أنَّ جسمي يحارب نفسه!

يقول جملته الأخيرة مبتسمًا، فأدهش لهذه الروح القوية التي تجلس أمامي، وبالتأكيد قد أثار فضولي أكثر، واسترعى كامل انتباهي.

- ولكن أليس هنالك علاج؟

- لا يوجد علاج لمثل حالتي، أمَّا دورة المرض فغريبة، أحيانًا تنتكس حالتي وتصل إلى الحد

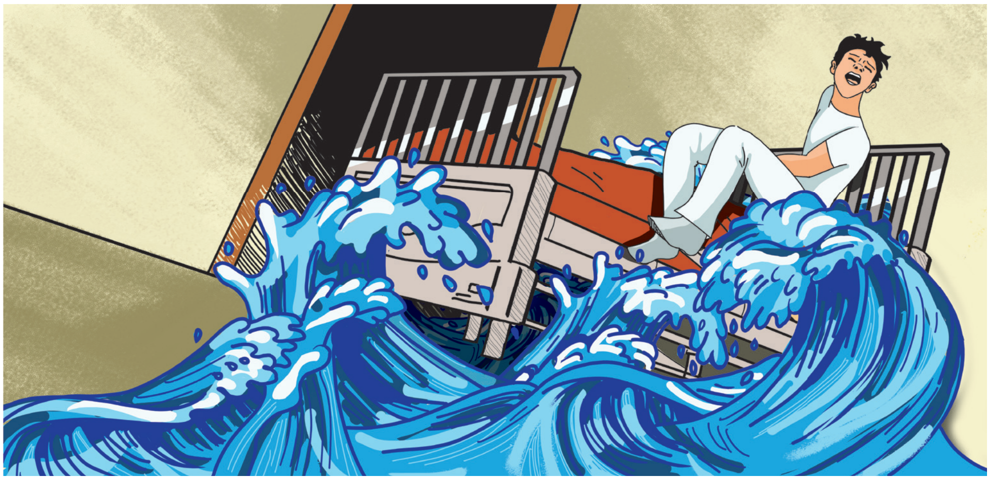

الذي لا أستطيع معه التنفس وحدي، ثم تنحسر الأعراض شيئًا فشيئًا، حتى أعود إلى حالة شبه طبيعية، تُنسيني مرضي وآلامه.

تعقد الصدمة لساني، لا أعرف ماذا أقول في هذه الحالات الكئيبة، وأنا الذي كنت أظنُّ أن حالتي لا تطاق، وأن نصيبي من الدنيا هو العذاب المستمر!

- لا تحزن، أنا راضٍ بما قسمه الله لي، وصابر على ذلك.

يدهشني حسن مرة أخرى، كيف له أن يحافظ على إيمانه وثقته بعد كل ما حدث له، ليتني كنتُ قويًّا مثله.

- أرجو ألّا أكون قد عكَّرت مزاجك.

- لا أبدًا يا صديقي.

تخطر ببالي فكرة فأقولها له مباشرة: ما رأيك أن أقرأ لك إحدى القصص التي معي؟ سنتسلَّى كثيرًا، وربما تقوم بمغامرة خياليَّة في حلمك كما حدث معي أمس.

يتحمَّس حسن لهذه الفكرة: أوه، نعم بالتأكيد.

أفتح كتابي الذي اخترته لهذا المساء، وأبدأ بالقراءة.

جوليفر كان طبيبًا جرَّاحًا، تخيَّل ذلك يا حسن، حتى بطل قصتنا طبيب!

أضحك، ويضحك حسن معي. أكمل له قراءة القصة والسعادة بادية على وجهَيْنا.

لا أعلم متى غفوت ليلة أمس، لكنَّني استيقظت على صوت حسن وهو يناديني بأقصى ما لديه من طاقة.

- ما بك يا حسن؟

- ألا ترى ما يحدث حولنا؟

نظرت حولي ولم أفهم ما يقصده حسن؛ فالمكان هادئ كما تركناه ليلة أمس.

- انتظر، اصمت للحظة واستمع.

أفعل كما قال حسن، يعمّ الهدوء المكان، فأسمع صوت موج بحر قريب.

أصيح: نعم يا حسن، أنا أسمع صوت الموج، ليس هذا فقط، أنا أحسُّ بالماء ينساب من بين أصابع قدميَّ وكأنَّ الماء يعلوهما ثم ينحسر، وهذا غريب طبعًا، لأنّ قدميَّ محشورتان منذ أسابيع داخل جبائر من الجِبس الصُّلب، لا أقدر حتى على حكّ باطن قدمي لو أردت.

أقول ذلك دفعة واحدة وأنظر نحو حسن، ألاحظُ أنه يسلِّط نظراته نحو قدميَّ، أنظر أنا الآخر هناك، فأتفاجأ بموجة ماء مالحة تهجم عليَّ.

- ما الذي حدث توًّا؟!

أسأل حسن، لكنّه يجيبني بدهشة: لا أعلم!

لا بدَّ أنني أحلم ثانية! هكذا قلت لنفسي، فهدأتُ قليلًا.

أُغمض عينيَّ في محاولة للعودة إلى النوم، أو الاستيقاظ منه، لا أدري؛ فعقلي مُشوَّش الآن.

أفتح عينيَّ، كلُّ شيء هادئ وفي مكانه، أنظر نحو حسن فأجده مستيقظًا أيضًا.

- لقد حظِيتُ بحلم غريب يا حسن، يشبه إلى حد ما ذلك الذي حدَّثتك به.

ينظر حسن نحوي ويقول: وأنا كذلك.

كيف لشخصين أن يحلما الحلم ذاته؟! ذلك مستحيل. كنت أفكِّر في هذه الصدفة العجيبة عندما شعرت بحركة غريبة تحت السرير.

قلت لحسن: هل من المعقول أن يكون هناك فئران في المستشفى، وفي غرفة مُعقَّمة كهذه؟!

أكملتُ كلامي ولمحت شيئًا يركض بسرعة تحت سريري ويختبئ تحت سرير حسن.

قلت في نفسي لقد ثبتت الرُّؤية، إنه فأر، بل ربما جرذ؛ لأن حجمه أكبر قليلًا من حجم الفأر.

أردتُ تحريك رأسي فلم أستطع.

هذا غريب، وكأنّ وجهي مثبّت أيضًا إلى الوسادة، لم يقل الطبيب أنَّ هناك حاجة لتثبيته!

لم أكمل فكرتي، وإذا بموجة عاتية تهجم علينا، وتجرف حسنًا وسريره بعيدًا جدًّا، ظَلَّ يبتعد

عن مرمى بصري إلى أن اختفى، بينما كنت لا أقدر على الحراك مطلقًا، فصرختُ عاليًا لعلَّ أحد الممرضين يسمعني فيأتي لمساعدتنا، لكن كلّ صياحي ذهب أدراج الرياح.

تعجَّبت من اتساع غرفتي التي أصبحت فضاءً مترامِيًا لا أكاد أبصر آخره، يقلقني انجراف حسن بعيدًا، لكنني مقيَّدٌ ولا أستطيع الحركة، أتذكَّر أنني في المرَّة الماضية عندما رافقت الشَّاطر حسن اختفت كل ضمَّاداتي وأربطتي، واستطعت الحركة بِحرّية، فإذا كان ما يحدث الآن تكرارًا لما حدث سابقًا فلماذا لا أستطيع الحركة؟

- لأننا قَيَّدناك بحبالنا وأوتادنا أيها المسخ المخيف.

يقول ذلك الكلام كائن صغير ثمّ يقفز إلى جوار رأسي كي أتمكّن من رؤيته.

أصيح: أنت قزم! لكنَّ ذلك غير ممكن، بل مستحيل.

يقترب القزم مني ويَخِزُ أنفي بأداة مدبَّبة في يده، تُشبه عود الأسنان الرفيع، فأتألَّم.

يضحك القزم ويقول: والآن، هل صدَّقت أنَّني موجود؟

أردُّ وأنا ما زلت أشعر بالوخزة المؤلمة: نعم.. نعم أصدِّق، ولكن لماذا تبدو هادئًا وغير خائف مني؟

يجلس القزم على الرمل الذي أصبح يحيط بي فجأة، يغرِس رمحه في الأرض ويتَّكئ على ركبته، ثمّ يقول بلغة واثقة: كنت خائفًا في البداية، عندما واجهت المخلوق الأوَّل، لكن الآن، أظنُّ أن اصطياد الوحوش صار أمرًا معتادًا بالنسبة لي.

رغم أن الموقف غير مريح بتاتًا لكنني ارتحت قليلًا عندما ذكر الوحش الثَّاني، لا بد أنه يتحدث عن حسن، ذلك يعني أنه بخير ولم تُغرقه تلك الأمواج العاتية.

أميل برأسي نحو القزم وأقول له مستعطفًا: ما رأيك أن تأخذني إلى ذلك الوحش الذي يشبهني، فهو صديقي ويُعاني مرضًا خطرًا، هيَّا كُن رحيمًا، وأعِدك بأنني لن أهرب منك.

ينظر القزم نحوي ثم ينفجر ضاحكًا وهو يقول: هل تظنَّني أحمقَ؟ يبدو أنَّ حجمك كبير، لكنَّ حجم عقلك لا يتجاوز حجم حبَّة جوز منكمشة.

أتعجَّب من كلامه، لم أتوقَّع ردَّ الفعل العنيف هذا، وعندما رأى حيرتي قال: لن أضع وحْشين قويين في مكان واحد، ربما تحطِّمان مدينتنا كلها لو تعاونتما ضدَّنا.

لا يبدو هذا القزم غبيًّا، وأظنه مُحِقٌّ إلى حدٍّ ما، لكنني مُسالِم، وحسن مريض لا يقدر على الحركة، فكيف سنحطم مدينتهم؟

انصَعْتُ إلى كلام القزم، فقبل كل شيء هو من يحمل السلاح، يسانده عشرات الأقزام الذين يشبهونه، وربما المئات، الذين يحيطون بي ويوجِّهون أسلحتهم نحوي.

لم تخاطر الكائناتُ الصغيرة بفك وثاقي، وأظنهم مُحقِّين في تَخَوُّفهم، فيمكن لخطواتي الضخمة أن تحطم شوارعهم ومبانيهم، أو ربما أدوس أشجارهم وحيواناتهم دون قصد، فأسبِّب لهم خسارة كبيرة؛ لذلك أبقوني مقيَّدًا، ثم أحضروا عدَّة عربات لها عجلات، وثبَّتوني إليها، ثم ربطوا تلك العربات بخيول كثيرة، وجرَّتني مسافة طويلة، إلى أن وصلت إلى مغارة تبدو هائلة الحجم بالنسبة لهم، ولها باب مصنوع من جذوع الأخشاب المتراصَّة، أعتقد أنها جُهِّزت خصيصًا لأمكث فيها، إلى أن يتشاوروا فيما بينهم ومع حاكمهم بشأني.

لا أصدق أن ذلك يحدث معي مرَّة أخرى، أنا داخل حلم يبدو حقيقيًّا للغاية، أشعر بكل شيء فيه وكأنه يحدث فعلًا، والأكثر غرابة أنه رغم تَيقُّني أن كل ما يحدث لي هو خيال فقط، لكنَّ قلقي يزداد على حسن، رفيقي المسكين الذي لم يمضِ على وجوده معي سوى ساعات قليلة.

أنظر من خلال الأشجار التي شكَّلت باب سجني، فألمح عدَّة أقزام يقومون على حراستي، أناديهم، وأحاول أن أجاذبهم أطراف الحديث لكنهم يرفضون الكلام معي.

أحاول عصر دماغي لأتذكَّر أحداث القصة التي قرأتها أمس، فيقفز إلى ذهني اسم المدينة التي أنا فيها، فأقول مباشرة دون تفكير للحارس الذي يقف بالخارج: أنت من مدينة ليليبوت؟ إنها مدينة جميلة للغاية.

يفزع القزم ويتراجع إلى الخلف، حيث بقيَّة الحُراس ثم يقول بصوت عالٍ: لقد عرفت من تكون، أنت جاسوس، نعم لقد أرسلتك مدينة بليفوسكو لتتجسس علينا، وربما تقوم بتحطيم مدينتنا بضخامتك.

يصيح الحارس بعدها: الحرب.. يا أهالي ليليبوت، بليفوسكو أعلنت الحرب وأرسلت محاربيها لقتالنا.

يتحرَّك بقية الأقزام أمامي وينتشرون في كل مكان كأنهم نملٌ ضخم فزع، أحاول إفهامهم أنني قرأت حكايتهم في كتاب، لكنَّ فزعهم يزداد مع الوقت، ويغادرون المكان، لأبقى وحيدًا في زنزانتي.

للمرة الثانية يخونني ذكائي، لعلّي لا أُحسن التعامل مع الكائنات الصغيرة، أو ربما تُفرط الأقزام في التفكير بحيث ترى في كل كلمة أو حركة مؤامرة تهدد حياتهم.

- آه، ما الذي يجب أن أفعله الآن؟ فكِّر يا فارس، فكِّر!

- من هو فارس؟

أتفاجأ بوجود رجل بحجم طبيعي يقف عند باب السجن، يفتح لي الباب، وينظر خلفي في المغارة باحثًا بعينيه عن شيء ما.

أقول له: فارس هو اسمي، وكنت أكلِّم نفسي فقط.

يهزُّ الرجل رأسه وهو يقول: أوه نعم، أنا أفعل ذلك أحيانًا فتظن زوجتي أنني مجنون، تخيَّل لو قمت بإخبارها بأنَّ هناك جزيرة كاملة من الأقزام التي لا يتجاوز طول القزم فيها ارتفاع حذائها ذي الكعب العالي عن الأرض! ماذا ستفعل بي يا ترى؟ ثم يغرقُ في الضحك.

يتحدث الرجل بلكنة بريطانية واضحة. أتأمَّل وجهه قليلًا ثم أصيح: أنت ليمويل جوليفر، الطبيب الجرَّاح من لندن!

ينظُر الرجل نحوي بريبة، ثم يقول: نعم، كيف عرفتني؟

أقول له بعفويَّة: لقد قرأت كتاب رحلاتك التي ستقوم بها، أنت مشهور جدًّا.

ينتفض الرجل ويتراجع إلى الخلف: رحلاتي التي سأقوم بها؟ هل هناك رحلات أخرى غير هذه؟

أجيب بحماس: أجل، في رحلتك القادمة ستلتقي بالعمالقة، ستكون أنت قزمًا مقارنة بهم، تخيَّل ذلك! ثم ستعود إلى الإبحار مرة أخرى وستصل إلى جزيرة العباقرة، الذين رغم عبقريَّتهم على الورق لكنهم يتصرَّفون بغباء في الواقع، ثم عندما تعاود الإبحار، ستجد نفسك في أرض الهوينهم، التي تحكُمها الأحصنة و...

كنت مسترسلًا في الحديث ثم انتبهت إلى جوليفر، كان وجهه مصفرًّا من الخوف، ويحدِّق إليَّ بفزع، سألته ما بك؟ لماذا أنت خائف؟

فأجابني بارتباك: أنت ساحر، بل مشعوذ شرير، وإلا فكيف عرفت كل هذا؟! أرجوك لا تؤذِني.

في الحقيقة، لم أتوقع أن يظن جوليفر ذلك بي، ولكن بعد التفكير فيما قلته له، أظنُّ أن مخاوفه في محلها.

عندما نظرت مرة أخرى نحو جوليفر كان قد اختفى من أمامي، وكذلك الباب المصنوع من جذوع الأشجار، التفتُّ نحو الشاطئ، ووجدت جوليفر يستخدم الباب كطَوْفٍ خشبيٍّ ويبحر به بعيدًا، وهو يضحك بهستيريَّة، ويقوم بحركات مجنونة وكأنَّه أفلت للتَّو من بين مخالب وحش مخيف.

لا بد أنني أفزعتُه بشدة! أخشى أن يتوقَّف عن القيام برحلاته القادمة، ربَّما ذلك فائدة جهلنا بما سيحدث في المستقبل، وإلا لما وَاتَتْنَا الشَّجاعة للنُّهوض من فراشنا صباحًا.

هذا الموقف يعلِّمني درسًا مهمًّا، فليس كل ما يُعْرف يُقال، ولو أنني تَرَيَّثت قليلًا لما فرَّ الرَّجل مني هكذا وتركني وحيدًا هنا.

والآن كيف أقول للناس أنني أفزعت البطل وأفسدتُ أحداث قصة عالمية؟ أضحك لهذه الفكرة العجيبة، ثم أتذكَّر حسن، فأتحرَّك للبحث عنه.

بعد ربط الأحداث ببعضها، أتأكَّد أن حسنًا ليس على هذه الجزيرة، فالجنود تحدَّثوا عن وحش واحد فقط، من الواضح أنه جوليفر، ثم إنني رأيت سرير الفتى ينجرف بعيدًا عني، حتمًا سأحتاج إلى مساعدة الأقزام، ولكن يجب أن أكسب ثقتهم أولًا.

خطوت بحذر نحو مدينة ليليبوت، وعندما اقتربت منها بما يكفي جلست على الأرض بحرص حتى لا أحطِّم أي شيء بالخطأ، ثم ناديت: يا أهالي ليليبوت الكرام، أنا صديق لجوليفر، وجئت لمساعدتكم في حربكم ضد مدينة بليفوسكو.

انتظرت قليلًا، فأطلَّ من أعلى البُرج قزم له لحية بيضاء، عرفت أنه الحاكم، وبدأت بيننا المفاوضات على آليَّة اشتراكي في الحرب.

بعد اتفاقنا على كل التفاصيل، التي بالطَّبع أعرفها مُسبقًا من القصة التي قرأتها، انكمشت في مكاني لأحصل على قسط من الراحة، استعدادًا للمعركة التي ستبدأ في الصباح الباكر.

لم أتمكَّن من إغماض عينيَّ؛ فأنا متوتِّر من اشتراكي غير المخطط له في الحرب، وأيضًا ما زال القلق يساورني على رفيقي.

عندما انتصف الليل تقريبًا سمعتُ صوتًا خافتًا يكلِّمني، تجوَّلتُ بعينيَّ باحثًا عن مصدر الصوت، ولم أحرِّك جسدي خشية أن يكون المنادي أحد الأقزام، فيتأذَّى دون أن أقصد، وإذا بها فتاة صغيرة تحمل مصباحًا لوَّحت لي به قائلة: أنا هنا، أيها السيد.

أعجبني أدبها؛ فهي لم تصفني بالوحش أو بالمخلوق كما فعل الآخرون. بسطتُ لها يدي، فصعدَتْ عليها، ورفعتُها قريبًا من وجهي.

سألتها: من أنت، وماذا تفعلين هنا في هذا الوقت؟

ردَّت بانفعال: أنا الأميرة لِيلي، ابنة الحاكم، وأحاول منعك من ارتكاب حماقة، فالحرب لا تجرُّ إلا الخراب.

أسعدُ بشجاعة لِيلي، فأحاول الاستزادة من كلامها: ولكن والدك هو من يريد الحرب، فهل تُخالفين رأي والدك؟

تردُّ لِيلي: أنا أحب والدي جدًّا، ولا أخالفه في أي أمرٍ، لكنَّ شعْبَي (ليليبوت) و(بليفسكو) هما شعبٌ واحدٌ في الأصل، وما بينهما من خلافات هي اختلافات بسيطة لا تستدعي كل هذا الغضب، ولا تستحق أن يُعلَن لأجلها الحرب لترويع الآمنين.

أتبسَّم وأنا أجيبها: أحسنتِ القوْل؛ فقد فقدتُ والدي في حربٍ كهذه، ولا أحبُّ لأي طفل أن يمرَّ بتجربتي.

تردُّ لِيلي وقد ظهر في صوتها التأثُّر: هذا أمر مؤسف، لا بد أن الوضع كان صعبًا.

أتذكَّرُ وجه أمي في هذه اللحظة، فأبتسم وأقول: كان سيصير كذلك، لولا وجود سيدة مُحبَّة اعتنت بي وبذلت كل جهدها لتربيتي.

لِيلي: تبدو امرأة رائعة، أوصل إليها تحيَّاتي، عندما تعود إليها.

- سأفعل إن شاء الله، والآن، اطمئني وعودي إلى قصرك آمنة.

أضع يدي على الأرض، فتقفز لِيلي، وتعود أدراجها من حيثُ أتت، وأغرق أنا في التفكير فيما عليّ فعله غدًا.

أستيقظُ مع خيوط الشمس الأولى، وأتوجَّه نحو الشاطئ حيث يوجد أسطول السفن الحربية، أتفقَّد السفن، والجنود الأقزام الذين يشغِّلونها، يلفت انتباهي ما يشبه القارب يطفو بالقرب من الميناء، يبدو مألوفًا، أتوجَّه نحوه وأتحقَّق منه ثم أصيح: إنه كتاب رحلات جوليفر!

أتفقَّد الكتاب، وأُزيل ما علق به من طحالب وأشياء أخرى لزجة لا أعرفها، ما يزال مفتوحًا على الصفحة التي وصلت إليها في القراءة، لكن الصفحات متضررة للغاية نتيجة وجودها في الماء، أهمُّ بإغلاق الكتاب لوضعه تحت إبطي والمُضِي قُدُمًا، لكنَّني أتذكَّر ما حدث في المرة الماضية عندما أغلقت كتاب الشاطر حسن، فقد عاد كلُّ شيء إلى مكانه وكأنَّ شيئًا لم يحدث، ماذا لو أغلقت الكتاب في غياب حسن، وتسبَّبْتُ في حبسه هنا إلى الأبد؟ لن أغلق الكتاب قبل أن أعثر عليه.

يبدو قراري منطقيًّا رغم عدم وجود منطقٍ يَحكُم ما يحدث لي أساسًا، لكنني أستمرُّ في لعب دوري، راجيًا أن ينتهي هذا الحلم قريبًا.

لا أعتقدُ أن عُمق البحر سيشكِّل عائقًا أمامي؛ فارتفاع الماء يصل إلى ركبتيَّ تقريبًا؛ لذلك أستطيع الوقوف فيه باتِّزان دون مشاكل، أنظر في الاتجاه المقابل، نحو جزيرة الأقزام المعادية، ولا تبدو بعيدة أيضًا.

أسمع بلبلةً تسري بين الأقزام المحاربين، وأراهم يُشيرون بخوف نحو الجزيرة الأخرى، فأعاود النَّظر إليها، يا إلهي، هناك شخص ضخم يشبهني، ويلوِّح لي بيده، أووه إنه حسن!

أربط السفن بحبالٍ قويَّة، أجمعها كلها في قبضة يدي، أتحرَّك بصعوبة في الماء وأنا أجرُّ هذا العدد الكبير من السفن خلفي، أنظر نحو حسن، وأراه يفعل الشيء نفسه.

أقطع المسافة بهمَّة ونشاط، وأتوقَّف في انتظار وصول رفيقي، نُفلِت الحبال من قبضتينا، ونتعانق.

- قلقت عليك يا صديقي، كم أنا سعيد برؤيتك مرة أخرى.

اعتقدت الأقزام في البداية أننا نتصارع، فارتفع صياح كل فريق ليشجِّع وحشه، وتطلب من كل واحدٍ منا القضاء على الآخر، وعلى أسطول السفن المعادية. نظرتُ في وجه حسن وضحكنا معًا، ففهمت الأقزام ما يجري أخيرًا.

أمسكنا الحبال من الطرفين وربطنا الأسطولين معًا، ثم قال لهم حسن: ربَّما عليكم أن تتعلَّموا كيف تتعايشون معًا، الخلاف على أسلوب ارتداء الملابس أو طريقة كسر البيض أمر سخيف، ولا يستدعي قيام حرب بغيضة.

قلت لهم وأنا أحمل كتابي: ستبقون محتجزين هنا إلى أن تتوصَّلوا لتسوية عادلة وتتصالحوا فيما بينكم، وإلا فإنَّنا سنعود لأجلكم، ولن نكون لطيفيْن كما نحن الآن.

أمسك بيد حسن وأغلق الكتاب، فينبثق الضوء الأبيض الساطع من جديد.

أستيقظُ بسبب الضَّجَّة التي أحدثتها الممرضة وهي تزيح ستائر النَّافذة، لتسمح لضوء الشمس بغمرِ الغرفة بالنُّور، أبتسم رغم التَّعب الذي أحسُّ به، فأنا أشعر وكأنني كنت أركض طوال الليل في أحلامي!

أنظر نحو حسن، فألمح ابتسامة ارتسمت على مُحَيَّاه، قبل أن يغيب وجهه خلف الستارة البيضاء الفاصلة بيننا، أسمع أصوات الممرضين وهم يقومون بفحوصاتهم الروتينية له، وأحاول تمضية الوقت في شيء مفيد، في انتظار دوري أنا أيضًا.

- ماذا يفعل عود الأسنان في شعرك؟ تضحكُ الممرضة

ولكنني أطلب منها أن تعطيني إيَّاه، أمسكه بحرصٍ شديد وأقلِّبه بين يديَّ، إنه يشبه رمح القزم المحارب!

أضطرب قليلًا، لكنني أتماسك ريثما تنهي الممرضة عملها وتغادر، فتفرغ الغرفة أخيرًا من الناس، ما عداي أنا ورفيقي.

ظللتُ برهة أحدِّق في السقف ولا أعرف كيف أفاتح حسنًا في الموضوع، هل أسأله عما إذا كان قد شاركني في أحد أحلامي العجيبة؟ ربما سينعتني بالجنون.

- حدث لي أمر غريب ليلة أمس! جرت أحداث الحكاية كما وصفتها لي من قبل، حتى ظننت أنها حقيقية يا فارس.

يقول حسن ذلك وينتظر ردَّ فعلي.

أفكِّر قليلًا ثم أقول: هل يمكن أن نحلم نحن الاثنان الحلم ذاته؟ أو لعلَّك تسلَّلت إلى حلمي بالخطأ!

يردُّ حسن: ذلك مستحيل، على ما أظن.

- إذًا، لعلَّ ما حدث أمس لم يكن حلمًا!

أقول ذلك بشيء من التردُّد، فأسمع ضحكة خفيفة من حسن وهو يتكلَّم بشكل متقطِّع: الحمد لله أنك قلت ذلك؛ فقد ظننت أنني أفقد عقلي!

حسنًا، يبدو أننا نتَّفق على أنَّ ما حدث لم يكن حلمًا، وهذه خطوة لا بأس بها، والآن ما التفسير المنطقي لما يجري؟

- الأمر بسيط، لقد انجرفنا إلى أرض الحكايات! ولا تفسير آخر.

يقول حسن ذلك ببساطة شديدة، وأقتنعُ به مبدئيًّا، ثم أقول له: أخبرني بما حدث معك بعد أن سحبتك الأمواج بعيدًا عني.

يفكِّر حسن قليلًا ثم يقول: لكن أنت من جرفتك الأمواج، وبقيتُ ثابتًا في مكاني، ثم اكتشفتُ بعد لحظات أنني أستلقي على الرمال عوضًا عن سريري، تيقَّنت عندها أنني على شاطئ ما، وهذا أسعدني؛ فأنا لم أكن قريبًا من البحر بهذا الشكل من قبل، كانت هذه مرّتي الأولى، وبالطبع شعرتُ بالرُّعب أيضًا؛ لأنني خشيت أن تغمرني موجة فأغرق فيها، فأنا كما تعلم غير قادر على الحركة، لكنَّ ما حدث بعد ذلك أدهشني؛ فقد استطعت التَّحرُّك بحرِّية، كلُّ عضلاتي وأعصابي عادت إلى العمل بشكل سحريٍّ!

أستمعُ إليه باهتمام شديد، وأنا أراقب لمعان عينيه وهو مسترسلٌ في وصف كل الأحداث والصعوبات التي واجهها، يا إلهي، كم يبدو سعيدًا!!

تبادلنا سرد ما حدث معنا بالتَّفصيل حتى لحظة لقائنا، وأخبرته عن جوليفر، وكيف فرَّ هاربًا من الحكاية.

سأل حسن: أين ذهب الكتاب؟

بحثتُ عن الكتاب ووجدته فوق كومة الكتب، مددتُ يدي وتناولته، ففاحت منه رائحة قوية تشبه رائحة السَّمك، ثم فتحته فكانت الصفحات مبتلة بعض الشيء والطباعة متضرِّرة أيضًا، ثم وقعت عيناي على رسم لجوليفر وهو يركب الطَّوف هاربًا، ضحكتُ، وأَرَيْتُها حسنًا من بعيد، فضحك هو الآخر.

بحثت في الصفحات التالية، تفاجأت برسمة تشبهني أنا وحسنًا عندما التقينا في وسط البحر وتعانقنا، كان الأمر غريبًا جدًّا.

والأغرب من ذلك أن باقي الصفحات كانت فارغة.

- إذًا فقد حدث ما كنت أخشاه فعلًا، لم يرجع جوليفر لإكمال رحلاته، لقد أفسدتُ القصة.

- أنت لم تقصد ذلك أبدًا.

- ربّما علينا أن نكون أكثر حرصًا في المرات القادمة، إذا كان هناك مرات قادمة.

وقع كلماتي لم يترك أثرًا طيبًا في وجه حسن، فظهر وكأنَّه خائب الرجاء، فتداركت الأمر وأكملت: نحن لا نعرف بالضبط كيف ومتى ننتقلُ إلى أرض الحكايات، أخشى أن يعود ذلك بالضَّرر علينا وعلى صحَّتنا.

- أرجو أن نتمكَّن من العودة إلى هناك؛ فهي المرة الأولى لي منذ فترة طويلة، التي أشعر فيها بأنني شخص طبيعي.

أتأثَّر بما يقوله حسن، وأتفهَّم رغبته، بل حاجته الملحَّة إلى العودة إلى أرض الحكايات؛ فهناك لم أكن لأميِّزه عن أي فتى آخر يعيش حياته العادية.

- لكنَّني لا أعلم حقًّا كيف يحدث الأمر، ما أعرفه أنَّ الكبار لا يذهبون إلى هناك؛ فقد كانت أمي موجودة في المرة الأولى لكنها لم تذهب معي، في المرة الثانية رافقتني أنت، لا بد أن الأمر متعلِّق بالعُمر، ووفرة الخيال أيضًا، ويمكن للشخصيات أن تسمع صوت أفكاري عندما تكون في عالمي، لكن كل شيء يعود إلى طبيعته في أرض الحكايات، والأهم من ذلك كله هو الكتاب، لا نستطيع العودة إلى عالمنا إلا بواسطته، وأعتقد أننا سنكتشف المزيد بعد كل مرة.

يهز حسن رأسه مؤيِّدًا كل ما أقوله.

- ما رأيك أن أقرأ لك قصة الآن؟

يردُّ حسن مبتهجًا: أوافق بالطبع، لكن اختر لنا قصة خالية من الكائنات الشريرة أو الحروب.

نضحك معًا، أبحث بين الكتب فأجد قصة أحدب نوتردام، لا أذكر أنَّ فيها وحوشًا؛ لذلك ستكون حصَّتنا من القراءة لهذه الليلة.

نراقب الغروب معًا، وننتظر خُلُوَّ المكان من الزائرين أو العاملين، لنبدأ أمسيتنا اللطيفة.

... دينغ دونغ... دينغ دونغ..

يا له من صوت مزعج، ربَّما لو لم أكن مقيَّدًا لقمتُ مفزوعًا وسقطتُ من سريري.

ألتفتُ نحو حسن فأجده مستيقظًا، ينظر نحوي مبتسمًا، وهو يضع كلتا يديه على أذنيه ليحميهما من صوت الجرس العالي.

أنتبه إلى أنه أصبح قادرًا على تحريك ذراعيه! إذًا فنحن على موعد مع مغامرة جديدة.

أتململُ في سريري لأتأكَّد أنَّ الأربطة الطبية قد اختفت، ثم أنزل من فوقه فأَقعُ واقفًا، لقد اختفى السرير بسرعة. أنظر نحو حسن فأجده يمطُّ ذراعيه وساقيه ويتفقَّدهما، لا بد أنه سعيدٌ جدًّا الآن لقدرته على الحركة.

- أين نحن؟

يتساءل حسن

فأجيب: إذا كنَّا قد وَلجنا إلى حكاية أحدب نوتردام فنحن بلا شك في باريس، وهذه البناية هي كاتدرائية نوتردام الشهيرة.

ننظر حولنا باستغراب، يعلِّق حسن: لا يبدو المكان فخمًا كما تخيَّلته، بل هو أقرب إلى بناء مهمل بعض الشيء.

- لا تنسَ أننا في العصور الوسطى، كما أنَّ الوصف في القصة لا يطابق الواقع بالضبط؛ فقد يُهمل الكاتب ذكر بعض التفاصيل، أو ربَّما يختار ما يخدم نَصَّه فقط؛ لذلك نحن الآن في الكاتدرائية التي في مخيلة الكاتب.

ينظر حسن نحوي متعجِّبًا: أنت تعرف الكثير عن كتابة القصص! ربما تكتب قصَّتي ذات يوم!

- أبتسم له وأقول: ربَّما!

نحاول استكشاف الغرفة التي نحن فيها، يبدو أنها مرتفعة بعض الشيء عن مستوى الأرض، أُخمِّن أننا في الطابق الثاني أو الثالث، الظلام حالكٌ في الخارج، رغم أنَّنا قد سمعنا قرع الأجراس منذ دقائق فقط، أي من المفترض أنَّنا لا نزال في فترة الظهيرة!

- هل تسمع ذلك الصوت يا فارس؟

أنصت لوهلة ثم أقول: إنه صوت شخص ما يهبط الدَّرَج.

نحاول الاختباء في الغرفة الفقيرة في الأثاث أساسًا، تقترب منَّا أخيلةٌ وإضاءة خفيفة، ثم يدخل مخلوق غريب لم نستطع تبيُّن ملامحه من حيث نختبئ.

- لقد رأيتكما، لا تخافا، أنا لستُ مؤذيًا.

نخرج من مخبئنا، ونتوجَّه نحو صاحب الصوت.

أقول له: أنت كوازيمودو.

ينظر نحوي كوازيمودو وهو مرتبك، فأستدرك قائلًا: لا تخف، نحن شخصان طيِّبان مثلك، لكنَّنا ضَلَلنا الطريق.

يعطف كوازيمودو علينا، ويطلب منَّا اللحاق به حيث يعيش، فسيِّده يتصرَّف بقسوة مع الجميع، وسيطردنا إذا رآنا بلا شك.

نتحرَّك بهدوء، ننزل أدراجًا خشبيَّة كثيرة ومُتعِبة، حتى نصل في النهاية إلى غرفة في القبو أسفل الكاتدرائية، فيها بعض الأثاث المهترئ، وفِراشٌ قديم.

يُشعل كوازيمودو مصباحًا معلَّقًا بالحائط، ويطفئ الشمعة، نور المصباح أوضح لنا هيئة كوازيمودو قليلًا، وصارت حَدَبته التي تعلو ظهره واضحة جدًّا.

- لا بأس إذا حدَّقتما إليَّ قليلًا، لقد اعتدتُ نظرات الناس الغريبة إلي.

نخفي نظراتنا أنا وحسن بخجل، فلم نقصد أن نجرح مشاعره ونحن ننظر إليه بهذه الطريقة.

يقول حسن: أنت طيب يا كوازيمودو، هل تسمح بأن نصبح أصدقاء؟

- هل تصبح صديقًا لِمَسْخٍ مثلي؟

- لا تقل ذلك عن نفسك أبدًا، أنت لست مسخًا يا صديقي، وإذا لم يرَ الناس مدى روعة روحك فهذه مشكلتهم هم وليست مشكلتك أنت.

أتابعُ الحوار الدَّائر بينهما بإعجاب وصمت، أظنُّ أن قصة أحدب نوتردام قد أثَّرت بشدة في صديقي حسن، وهو يُظهر تعاطفًا وحنوًّا كبيرًا تجاه كوازيمودو.

نسمع صراخًا من بعيد يأمر كوازيمودو بإطفاء الضوء والنوم مبكرًا؛ لأن الأعمال كثيرة صباح الغد. أَحْزِرُ أنه صوت فرولو الذي ربَّى كوازيمودو. تظنُّ أنه سيكون أكثر عطفًا على ربيبه، لكنَّ أحداث القصة تدلُّ على أنه هو المسخ الحقيقي.

ننزوي أنا وحسن في زاوية الغرفة، نحاول أخذ قسط من الراحة، يُلِحُّ كوازيمودو على منحنا غطاءه الوحيد بعد أن رفضنا النوم في سريره، فهو بالتأكيد لن يكون مرتاحًا في النوم على الأرض الصلبة بحدبته تلك.

لا نستطيع النَّوم بالطَّبع، نستمرُّ في النقاش أنا وحسن حتى ساعات الفجر الأولى. مرَّ الليل سريعًا جدًّا كأنه ساعة أو تزيد قليلًا، نفكِّر كيف نساعد كوازيمودو دون أن نغيِّر شيئًا في مجريات سير القصة. بعد نقاش طويل يقول حسن: لم أفهم، لماذا لا نغيِّر أحداث القصة؟ ماذا لو أنَّ كوازيمودو شعر بالحب والسعادة مثلًا، أو أنَّ فرولو عَرَفَ خطأه وتراجع عنه، وأصبح عطوفًا على كوازيمودو؟ ماذا لو..

- يا حسن، الحياة ليست عادلة، وليست النهايات سعيدة دائمًا.

- ولكنها قصة، نستطيع التحكُّم في أحداثها، وجعلها تميل إلى صالح كوازيمودو، هذه المرة فقط.

أفكر في كلام حسن، من سيتضرَّر من تغيير حكاية لجعلها أكثر إنسانيَّةً؟ ليتنا نستطيع تغيير الواقع بالطريقة نفسها لإيقاف الحروب والدمار والتشريد، وإنهاء الجوع في العالم! أو ربما

نستطيع إيجاد حلول لكل أمراض البشر، فتنتهي عذاباتهم وآلامهم إلى الأبد!

أُجيب حسنًا بحماس: لِمَ لا؟ هيا لنساعده ونمنحه بعض السعادة.

نتسلَّل خارج القلعة بهدوء، ونتجوَّل في المدينة، أنا لم أَزُرْ باريس في الواقع من قبل، ولكن هذه المدينة بالتأكيد ليست مناسبة للعيش فيها، كان بعض المارَّة يحدِّقون إلينا بشكل مزعج، قلت لحسن: لا بد أنَّ هيأتنا وملابسنا المختلفة هي السبب. تذكَّرتُ حديثي مع الأميرة لِيلي، وقلت في نفسي: ليتنا نستثمر مَزِيَّةَ التنوع ونستفيد من الاختلافات التي خلقنا الله عليها؛ لنعيش هانئين.

نصل إلى وسط الميدان، هناك حركة دائبة من العاملين، وكثيرٌ من الزينة المعلَّقة، لا بد أن هناك مناسبة ما.

يصيح حسن: إنه مهرجان المهرِّجين، اليوم ستكون المرَّة الأولى لكوازيمودو التي سيرى فيها العالم الخارجي دون أن يزدريه أحد، سيندمج مع الناس بحدبته المشوَّهة؛ لأنهم سيعتقدون أنها جزء من تنكُّره كمهرِّج.

- هل نمنعه من المشاركة؟

- لا طبعًا، هنا سيلتقي بإزميرالدا، الفتاة التي ستحنو عليه، وتُرِيه أن قيمته الحقيقية بما يحمله من طيبة داخله، وليس شكله الخارجي.

- لكنه سيتعرَّض للأذى!

يرد حسن بحزم: سنكون مستعدِّين للتدخل.

يمضي الوقت سريعًا في أرض الحكايات، فيحل المساء بسرعة، ويتكاثر الناس في الساحة، لم يُحدِّق إلينا أحد هذه المرَّة، ربَّما اعتبروا ملابسنا الغريبة بالنسبة لهم جزءًا من عرض المهرجين أيضًا.

تتسارع الأحداث، ويكتشف الجمهور أن حدبة كوازيمودو حقيقية وليست مجرَّد زي تنكُّري، فيبدأ بعضهم بمضايقته والسخرية منه، ثم تخرجُ أفعالهم عن حدود المعقول، فيقومون بتقييده في الساحة لتعذيبه، وهنا تتقدَّم الفتاة الغجرية إزميرالدا لمساعدته وفك قيوده.

اقتربت مع حسن منها، وقلت لها: لا بد أنكِ أزميرالدا.

ردَّت متعجبة: نعم أنا هي، هل أعرفك؟

فأجبتها: لا، أنتِ لا تعرفينني، لكنني أعرفك، وأعرف أنك وكوازيمودو في خطر، عليكما أن تهربا الآن دون إبطاء، وإلا فإنَّ أحداثًا مؤسفة سوف تقع لكما الليلة.

تسمَّرت الفتاة في مكانها تحاول استيعاب ما قلته، فيُكمل حسن: ليس هناك وقت للشرح أو التفكير، أرجو أن تثقي بنا، لكن هل تعرفين مكانًا آمنًا؟

تنظر إزميرالدا نحونا بدهشة، ثم تقول: نعم يمكننا العودة إلى مُخَيَّم الغجر، إنه قريب.

نغادر جميعًا السَّاحة قبل أن يتنبه أحد إلى هروب كوازيمودو، ونصل إلى خيمة إزميرالدا.

نقف جميعًا في الخيمة، لا يجرؤ أحد منَّا حتى على الجلوس، تحاول إزميرالدا التَّماسك وسؤالنا عمَّا يحدث، فأقول لها باختصار: إنه فرولو، الذي يسيء معاملة كوازيمودو دائمًا، وسيقوم اللَّيلة بمطاردة الغجر كلهم وسجنهم ليصل إليكِ، وستحصل بعض المواجهات بينكم وبينه تنتهي بموته وإحراق نوتردام وأجزاء من المدينة؛ لذلك نحن نستبق الأمر، ونطلب منك أن تنصحي الغجر بالمغادرة الآن، وأن تصْحَبي كوازيمودو؛ فهو سيكون في أمان أكثر معك.

تعصر إزميرالدا رأسها بكفَّيها وهي تحاول التَّفكير فيما سمعته واستيعابه، لكنَّها تتوقف فجأة ثم تقول: أجل.. أجل لقد رأيت هذا كله في كتاب النُّبوءات الذي وجدته صباح اليوم، كنت أظن أنه كتابٌ مزيَّفٌ؛ لأنني لم أر مثله من قبل، لكنه يفسر كل ما تقولانه.

أتبادل أنا وحسن النظرات ثم نقول لها بصوت واحد: أين هذا الكتاب؟

- إنه هنا في صندوق ملابسي، خبَّأته حتى لا يقع في يد قريبتي العرَّافة، ورغم أنها غجريَّة أيضًا لكنَّني لن أسمح لها باستغلال هذا الكتاب في الاحتيال على الناس وأخذ أموالهم.

تُخرِج الفتاة الكتاب، ويا للمفاجأة، إنها رواية أحدب نوتردام!

كُنَّا قد نسينا الكتاب تمامًا مع سرعة تصاعد الأحداث؛ لذلك سعدنا جدًّا باستعادته بهذه الطريقة غير المتوقَّعة.

إزميرالدا: لكنَّه تالف، لم أستطع تصفُّحه أو إغلاقه، إنَّه عالق على هذه الصفحة.

حسن: لا تقلقي، فالكتاب لا يستجيب إلا لصاحبه.

تخرج أزميرالدا لتحذِّر قومها، تُعجبني ثقتهم بها، واستجابتهم السريعة لكلامها.

خلال دقائق كان الغجر قد جمعوا أشياءهم، وتحرَّكوا سريعًا هاربين من باريس، وبقيت أنا وحسن في المخيَّم المهجور وحدنا. لم تَطُل وحدتنا؛ فقد هجم علينا رجال فرولو الغاضبون واقتادونا إليه، لقد ظنُّوا أننا من الغجر، مرَّة أخرى!

يضحك حسن وهو يقول: أنقذنا كوازيمودو من الزنزانة القذرة لنستقرَّ بها نحن.

فأجيبه: لا تقلق، لن نمكث هنا طويلًا.

- لكنَّهم أخذوا منَّا الكتاب.

- لديَّ خطة.

بدأت بالصراخ والطَّرْق على قضبان الزنزانة، فقدم إلينا أحد الحرَّاس متأفِّفًا.

- ماذا تريدان؟ عليكما التزام الهدوء وإلا..

- لديَّ خبر مهم، ولن أقوله إلا للنَّقيب فويبس.

يزداد تأفُّف الحارس وهو يغادر لإحضار فويبس، يعترض حسن: فويبس؟! أنت تعلم أن تصرُّفاته لا تقلُّ سوءًا عن تصرفات فرولو.

أجيبه: أعلم؛ لهذا السَّبب سيكون عدوًّا مناسبًا لفرولو، وما عليك إلا مجاراتي في الكلام لإقناعه.

بعد فترة قصيرة، يرجع الحارس مع فويبس، الذي يبدو منزعجًا لمجرَّد مقابلتنا.

لكنَّني أكسر حدَّة انزعاجه قائلًا: عندي أخبار مهمَّة لك، ربَّما تمنحك رِضى الملك!

زادت هذه الكلمة السحريَّة من انتباهه إلي، فرُحت أسردُ عليه قصة كوازيمودو مع فرولو، وكل ما قام به من جرائم تجاه الغجر، وأخبره بنيَّته حرق المدينة.

يقف فويبس للحظات غير مصدِّق ما أقوله، رغم تأييد حسن ودعمه قولي، فطلبت منه أن يحضر لي كتاب النبوءات -كما أسمته إزميرالدا- الذّي صادره الحرَّاس منَّا عند القبض علينا.

يُمسك فويبس الكتاب ويحاول تقليب الصَّفحات لكنَّه لا يُفلح، كما أنه لا يستطيع قراءة المكتوب أيضًا. أطلب منه أن يحاول مرَّة أخرى، وأن يحضر الحارس ليحاول أيضًا تغيير الصفحة لكنهما يعجزان عن ذلك.

عندها أطلب منه أن يعطيني الكتاب وسأثبت له أنَّ تصرُّفات فرولو المجنونة ستوصله إلى حرق المدينة.

أتناول الكتاب منه بحرص، فأنا لا أريد إغلاقه قبل أن يصدِّقني فويبس. أقلِّب الصفحات، ثم أصل إلى الصفحة التي يتواجه فيها فويبس مع فرولو، تُظهر الرسومات بوضوح ألسنة اللهب وهي تتصاعد في نوتردام، والمدينة كلها. يتراجع فويبس إلى الخلف ويقول: هل أنتما ساحران أم مشعوذان؟

يجيبه حسن: بل نحن شخصان طيِّبان يريدان المساعدة فقط.

وأُكمل أنا: لا داعي أن يعرف أحد بوجودنا، أنت من اكتشف نيَّة فرولو حرق نوتردام، وأنت البطل الذي سينقذ المدينة.

بعد أن تيقَّنت أنَّني أحدثت الأثر المطلوب في نفس فويبس، أمسكت بيد حسن، وأغلقت الكتاب.

- هل تعتقد أننا نجحنا؟

- لا أعلم يا حسن، أرجو ذلك.

يقول حسن بحماس: تفقَّدِ الكتاب، هيَّا، لا بد أن الأحداث الجديدة ستكون مُدَوَّنة فيه.

فأجيبه بتردُّد: ماذا لو أخفقنا؟ ماذا لو أنَّنا أفسدنا القصة، وأفسدنا حياة كوازيمودو إلى الأبد؟

- هيا، لا تكن متشائمًا، لقد قمنا بما رأيناه صوابًا، ونرجو أن تكون النتائج أفضل مما نتمنى.

أُمسك الكتاب، وأقلِّب صفحاته، وأنا أخبر حسنًا بكل ما استجدَّ فيه:

انظر، هنا هرب الغجر ولم يتمكَّن فرولو من الإمساك بهم، نحن نظهر في الزنزانة مع فويبس، لكنَّ ملابسنا تبدو مختلفة تمامًا، يبدو أنّنا كنا نشبه الغجر فعلًا!

أتمعن في الصفحة التالية ثم أصيح: لحظة! فويبس قام بمواجهة فرولو، وحاول القبض عليه

لوضعه في السجن، لكنَّه فرَّ، وقام بإحراق نوتردام، ومات فيها، في النهاية لم نُنقذ المدينة من النيران.

- كما قلت، قمنا بما اعتقدناه صوابًا، فرولو كان شخصيَّة عنيدة منذ البداية، وما كان ليستسلم بسهولة.

- صحيح!

أتنبَّه إلى وجود صفحة إضافيَّة في نهاية الكتاب، أفتحها بتأنٍّ: أوه، انظر، إنهم الغجر، لقد استقرُّوا في مكان ما يزخر بالخُضرة على ضفَّة نهرٍ جارٍ، وأستطيع رؤية إزميرالدا وكوازيمودو، يبدوان سعيدين للغاية!

أُغلق الكتاب، وأشعر بالارتياح؛ لأننا صنعنا فرقًا، وإن كان في قصة خيالية، ذلك يحفِّزني على البحث أكثر عن طرق تُحسِّن حياة الناس من حولنا، ولو بأشياء بسيطة!

تنتظر أمِّي طويلًا في الخارج، لم يُسمح لها بزيارتي بعد؛ لأنَّ الغرفة مكتظَّة قليلًا؛ فهناك عددٌ من الأطباء والممرضين يحيطون بحسن، لا يمكنني رؤيتهم بسبب الستارة التي تفصل بيننا، لكنني أسمع همهمات كثيرة عن تردِّي وضعه الصحي.

يجعلني ذلك أشعر بتأنيب الضمير، هل أنا السبب في ذلك؟

نستمر على هذه الحال حتى وقت الظهيرة تقريبًا، عندها يغادر الجميع، ما عدا ممرضًا واحدًا بقي ليتابع حالة المريض من كَثَبٍ لعدة ساعات إضافية، وأخيرًا تم السماح لأمي بالدخول.

نتحادث قليلًا، تُحدِّثني أمي عن يومها وعملها، وعن القطة الصغيرة التي وجدتها قُرب المنزل فقرَّرت الاعتناء بها، وتفكِّر في أن تحتفظ بها؛ لأنها تعرف مقدار حُبِّي للقطط.

تسعدني عودة أمي التدريجية إلى حياتها؛ فقد عانت ما يكفي من الألم معي، وأظنُّها أصبحت أكثر اطمئنانًا عليَّ؛ فقد لاحظت تحسُّن نفسيتي جنبًا إلى جنب مع تحسُّن حالتي الصحية.

ننتظر الطَّبيب الآن ليُطلعنا على المستجدَّات.

السّتارة الفاصلة لا تزال مُنسدلة، وهذا يقلقني بعض الشيء، ربما يدل على أنَّ هناك شيئًا ما قد أصاب حسنًا، أرجو أن يكون بخير.

دقائق ويُطلُّ الممرض مستجيبًا لطلب حسن بفتح الستارة، فأراه للمرَّة الأولى منذ عودتنا من مغامرة نوتردام، يبدو شاحبًا قليلًا، لكنَّه مبتسم كالعادة!

أهمُّ بسؤال حسن عن حاله، فيجيبني الممرض بدلًا منه: هو بخير، لكنَّه مرهق قليلًا، في الحقيقة قد سبَّب الحيرة للأطباء؛ فرغم معرفتنا أنه غير قادر على الحركة تقريبًا لكنَّ فحوصاته تُثبت قيامه بمجهود عضلي في الفترة الأخيرة؛ ممَّا أدى إلى إصابته ببعض التَّعب؛ فجسده غير معتاد على جهد كبير بهذا الشكل، لكنَّ الجميل في الموضوع أنَّ حالته النفسية تحسَّنت كثيرًا، وذلك ممتاز في مثل حالته.

أنظر إلى حسن بصمت، ولا أستطيع التفكير في أيّ شيء.

يحين دوري، فيأتي الطبيب متسلِّحًا بأدواته وتقاريره، يُمضي نصف ساعة في تفقُّد جسدي، ثم يقول لأمي بتفاؤل: الحمد لله، يبدو أننا تجاوزنا مرحلة الخطر، ولا يبدو أنَّ هناك أيَّ ضررٍ دائم قد أصاب عموده الفقري.

تطلق أمي «زغرودة» طويلة من الفرحة، يتردَّد صداها بين ممرَّات المستشفى كلها، تحمد الله كثيرًا، وتسجد شُكرًا لله على هذه النعمة العظيمة، إذًا هي مسألة وقت فقط قبل أن أستردَّ عافيتي كاملة.

ألتفتُ نحو حسن، فأجده مبتسمًا، ويقول لي بصوت مبحوح لا أكاد أسمعه: مبارك يا صديقي.

عند الغروب، يخيِّم الصمت على غرفتنا الصغيرة الغارقة في البياض، أراقب غروب الشمس أنا وحسن، ولكن كل واحد منا كأنَّه في عالمٍ مُنفصل عن الآخر، أشعر بالأسف لأجله، فحالته مُحيِّرة، والأمور كما فهمت قد تزداد تعقيدًا معه فتنتكس حالته، وربما قد يتحسَّن فيعود إلى حياته الطبيعية كأي فتى في مثل عمره، ولا يمكن لأحد التنبؤ بما سيحدث في المستقبل.

- ما عنوان كتابنا الجديد؟ يقول حسن بصوت أقرب إلى الهمس.

- هل أنت متأكد من رغبتك في خوض مغامرة جديدة؟ وحالتك..

- حالتي جيدة، أرجوك فلنفعلها.

أنصاع إلى رغبة حسن، وأتناول كتابًا من كوكبة الكتب التي تجاورني، وأبدأ بالقراءة.

أصحو على صوت نداء الباعة الجائلين، أصوات كثيرة متداخلة، أتعجَّب لوهلة لأنني اعتدت الجو الهادئ نسبيًّا في المستشفى، ثم أتذكَّر مغامراتنا الصغيرة فأهُبُّ واقفًا، أبحث عن حسن فلا أجده، أشعر بالضيق، هل افترقنا كما حدث في المغامرة الأولى؟ أم أنه لم يَعُد قادرًا على خوض المغامرات بسبب ازدياد حالته الصحية سوءًا؟ أشعر بالندم، لكنَّ صوتًا يمتلئ حيوية ونشاطًا يناديني من بعيد: فارس، تعالَ إلى هنا، أسرِع، سيفوتك كل المرح!

أركض في اتجاه حسن، يبدو أنه استعاد قوة صوته، كما أن جسده يبدو بخير تمامًا.

نتجوَّل في المكان المذهل الذي وجدنا أنفسنا فيه، أسواق زاخرة، وبضائع من كل صنف ونوع، ممَّا لا يخطر على البال، وهناك حركة دائبة لا تنقطع.

- انظر، هذا سوق الورَّاقين.

يُشير حسن نحو مدخل السوق، فنتسابق إليه، سوق كبير، بضاعته من الكتب فقط، نتجوَّل فيه مأخوذين من كمية الكتب الموجودة!

- تخيَّل يا حسن، هذه الكتب كلها، هذه المعارف، شيء لا يُصدق!

- من المؤسف أن معظمها لم يصل إلينا! بل ابتلعه النهر على أيدي المغول!

- تعالَ لنتفقَّد ما نستطيع منها، ربَّما نكون الوحيدَيْنِ من عصرنا اللّذَيْن سيضعان أيديهما على هذه النفائس الثمينة، لكن من سيُصدِّقنا يا ترى؟!

- يكفي أننا نصدِّق أنفسنا. أقولها لحسن، ونبدأ جولتنا بين دكاكين الورَّاقين.

كُتب في الطب، والهندسة، والجغرافيا، وعلم الفلك، ما هذه الرَّوعة التي أراها؟! أشعر بالغُصَّة وأتخيَّل ماذا كان سيحدث لو أنَّ هذه الكتب نجت من تلك المجزرة الشنيعة!

يلفت انتباهنا تجمهُر الناس عند أحد الدكاكين، فيقتادنا فضولنا للذَّهاب وإلقاء نظرة، ونكتشف أنَّ الموضوع يخصُّنا.

هناك فتى يعرض كتابًا غريبًا للبيع، ورغم اهتمام الناس به لكن لم يجرؤ أحدهم على شرائه بعدُ. أصيح بالفتى قائلًا: هذا كتابي، من أعطاك الحقَّ لتبيعه؟

يراني الفتى فيرتبك، ثم يقوم ببضع حركات بهلوانيَّة، ويفرُّ من المكان بخفَّة، ذلك المشاكس الصغير!

أجري خلفه لكنَّه سريع جدًّا. أشعر بالتعب، فأُسند جسدي إلى الحائط قليلًا لكي ألتقط أنفاسي، ألمحه من بعيد وهو يدخل إحدى الدُّور القديمة، أركض نحو الدار وأطرق الباب، فتطلُّ امرأة كبيرة عجوز.

- السلام عليكم يا سيدتي.

- وعليكم السلام يا بُني، ما حاجتك؟

- أبحث عن فتى صغير دخل هذا المنزل منذ قليل.

- ماذا فعل حفيدي هذه المرة؟

تقول السيدة ذلك وهي تنادي: يا علاء الدين، تعالَ إلى هنا.

يأتي الفتى وهو يحتمي بجدته، فأسأله: أين ذلك الكتاب الذي كان معك، هو مهمٌّ جدًّا لي.

- كم تدفع ثمنه؟

يصدمني السؤال، ولكن ما باليد حيلة، أسايره في لعبته وأقول: كم تريد ثمنًا له؟

- أريد درهمًا كاملًا، أنت تعلم أنني أستطيع بيعه بأكثر من ذلك، لكنني أشفقت عليك وأرخصت لك الثمن.

أضحك من كلام الفتى، المبلغ زهيد فعلًا، ولكن من أين لي بدرهم في هذا العالم؟

أفكر قليلًا ثم أقول: ليس معي درهم الآن، ولكن إذا صبرت فسأعطيك عندما أعود من السفر.

يوافق الفتى ويمدُّ الكتاب نحوي، تسألني الجدَّة إلى أين سأسافر، فأجيبها بثقة: سأرحل مع سفينة السندباد.

في تلك اللحظة كنت قد أمسكت بطرف الكتاب، لكنَّ الفتى يغيِّر رأيه عندما يسمع اسم السندباد ويحاول سحبه من يدي ثانية، نتجاذب الكتاب للحظات، وإذا بي أغلق الكتاب عن طريق الخطأ.

أُفيق وأنا مفزوع، ثم تخطر ببالي فكرة مُروّعة، هل تركت حسنًا في أرض الحكايات وحده؟

لا يزال المكان مُعتمًا، لم يحلَّ الصباح بعدُ، أنظر نحو سرير حسن وألاحظ حركته فيه، أطمئن إلى أنّني لم أتركه خلفي، وأنادي بصوت خفيض: حسن، هل أنت مستيقظ؟

أتفاجأ بحركته النشيطة التي لم أعتدها، يكشف عن رأسه ويقول: نعم أنا مستيقظ، أيها الغريب.

يا إلهي، ما هذه الورطة؟! يبدو أنني أعدتُ شخصًا آخر غير الذي يجب أن أُعِيده معي!

يقفز علاء الدين من السرير ويتوجه نحوي، يستكشفني بعينيه ثم يزم شفتيه ويقول: لماذا تبدو مختلفًا؟ كنت تركض بسلاسةٍ قبل قليل، لكنك الآن لا تبدو بخير!

يتحرَّك الفتى في الغرفة وهو يتفحَّص الأجهزة والمصابيح ثم يقول: آه.. كنت أعلم أن هذا الكتاب سحريٌّ لا يقدَّر بثمن، يبدو أنه يعمل كالمصباح السحري، انظر إلى هذا المكان العجيب الذي نَقلنا إليه!

لا أعرف كيف أشرح لهذا الفتى ما يحدث، كيف سيصدقني، والأهم ماذا سنفعل لنعيد كل شخص إلى عالمه الذي ينتمي إليه؟!

- ما رأيك أن أقصَّ عليك حكاية؟

-لا أريد حكايات، أريد أن أستكشف هذا المكان العجيب.

يبدو أنني وقعت في ورطة كبيرة، فهذا الفتى عنيدٌ جدًّا! ماذا أفعل يا ربي؟!

لم أكد أكمل كلامي، وإذا بعلاء الدين يصيح، لقد بدأ جسده يضمحلُّ، ويصبح شفَّافًا!

- اهدأ يا فتى، ستسبب الكثير من الفوضى إذا استمرَّ صراخك بهذا الشكل، وقد تحبسك الشرطة!

- الشرطة هنا أيضًا! لا، أرجوك أنا لا أريد أن أتورَّط مع الشرطة، فأُسبِّب الحزن لجدَّتي.

- حسنًا استمع إليَّ جيدًا، إذا سارت الأمور على ما يرام فسنرجع إلى عالمك، وأعيدك إلى جدَّتك، وأعدك بأنَّني سأوصي لك بأي مالٍ أحصل عليه من خلال رحلاتي.

- موافق، ماذا أفعل الآن؟

- عُد إلى السرير، واستمع إلى حكايتي.

أُعيد سرد الحكاية نفسها التي قرأتها لرفيقي حسن، على أمل أن أستطيع إصلاح الأمور.

يوقظني رذاذ الماء البارد، أفتح عينيَّ بهدوء وأحاول الوقوف معتدلًا، إلا أن هزَّة أرضية خفيفة أفقدتني توازني، فسقطتُ على الأرض.

أنظر حولي فأجد البحَّارة مهتاجين قليلًا، يتساءلون عن سر اهتزاز الجزيرة التي نقف عليها، أفكر لحظةً حتى أستوعب في أيِّ رحلةٍ نحن من رحلات السندباد السبع، ثم أصرخ: عودوا إلى السفينة بسرعة، هذا حوتٌ ضخم وليس جزيرة عائمة!

يضحك البحَّارة من كلامي، لكن الجزيرة تهتزُّ مرة أخرى، وتغوصُ أكثر فأكثر في الماء، عندها بدأ بعضهم بتصديقي فركضوا نحو السفينة.

كنتُ من أوائل الواصلين إلى الأمان، تبعني القبطان وبعض البحَّارة، بينما لم ينجح بعضهم الآخر من الوصول في الوقت المناسب، فقد ازداد هياج الحوت، وانتفض بقوة، فألقى بكل من

كان على ظهره في الماء، ثم غاص عميقًا.

في هذه الأثناء كان القبطان قد ابتعد فعلًا بأقصى سرعة نحو الشرق، على أمل أن ينجو بروحه وسفينته من هذا المخلوق الغاضب، الذي لو قرَّر ضربنا بذيله لقصم المركب إلى نصفين، ولكان الهلاك مصيرنا بكل تأكيد.

بعد أن اطمأن القبطان إلى أن الخطر قد صار بعيدًا قرَّبني منه وشكرني قائلًا: اطلب ما تشاء!

هذه فرصتي، ويجب أن أستغلَّها بشكل صحيح؛ لذلك قلت بشيء من الحزم: سيدي، ربما ستعتقد أنني مجنون لما سأطلبه منك، لكن أرجو أن تثق بي، وأعدك بأن تعود إلى بغداد بأموال كثيرة، أكثر ممَّا تطمح، لست وحدك فحسب، بل كل التُّجَّار والبحَّارة، وحتى عمَّال التحميل الذين يعملون على ظهر هذه السفينة.

ابتلع الرُّبَّان ريقه، أظنني قد أغريته بالمكاسب المتوقَّعة.

قال في شك: وماذا تريدني أن أفعل بالضَّبط؟

أخذت نفسًا عميقًا، وأردت أن أبدو واثقًا جدًّا من نفسي، وإلا فإنني أجازف برفض طلبي، نظرت في عينيه مباشرة وقلت: يجب أن نعود بالسفينة، إلى حيث تركنا بقية البحَّارة والتجار يصارعون الموج، سنجدهم جميعًا أحياء إن شاء الله، إذا تحرَّكنا الآن.

تسري همهمة واسعة، ينظر إليَّ القبطان باستخفاف قائلًا: والحوت الضخم؟ ألا تعتقد أنه سيقتلنا إذا عُدنا؟ لا بد أنه افترسهم واحدًا واحدًا، ولم يَبْقَ منهم أحد.

أردُّ بثبات: لن يهاجمنا الحوت، بل لن يكون موجودًا، لقد أبحر بعيدًا، فتلك النَّار التي

أشعلتموها على ظهره قد أفزعته بشدة، وإذا لم نعد إلى هناك ونجد السندباد فلن نستطيع الوصول إلى المال الذي وعدتك به.

يفكر الرُّبَّان بصوت أستطيع سماعه، ينظر إلى سفينته التي أصابها الضرر، سيكلفه إصلاحها أموالًا كثيرة، ماذا لو سمع كلامي هذه المرَّة؛ فقد صَدَقْتُهم وأنقذتهم المرة الماضية، سيصلح سفينته، بل قد يشتري واحدة جديدة، أو ربما يهجر حياة البحر كلها ومخاطره، ويتقاعد ليستمتع بإنفاق الأموال التي سيحصل عليها.

يتحمَّس الربَّان، ويأمر بحَّارته بالاستدارة من حيث أتينا. في الطريق التقطنا العديد من الناجين المعلَّقين بالألواح الخشبية، إلا أنَّنا لم نظفر بالسندباد بعد، أتوجَّه نحو الربَّان وأسأله من واقع خبرته لعله يستطيع الاستدلال على الاتجاه الذي سبح إليه السندباد.

ينظر الربَّان نحو الموج، وسرعة الرياح، واتجاه التيَّارات، ثم يقول لي: إن لم يخب ظنِّي، وكان صاحبك لا يزال حيًّا، فإنه يسبح في ذلك الاتجاه.

يشير الربَّان بيده، فيوجِّه البحَّارة السفينة في اتجاه إشارته، لم تمضِ فترة قصيرة حتى نادى الفتى الذي يقف في أعلى السارية: هناك رجل في الماء.

يقفز أحد البحَّارة، ويساعد الرجل في الصعود إلى السفينة، إنه يبدو في حالة مزرية؛ فقد بذل جهدًا كبيرًا في السباحة ليصل إلى بر الأمان. أقترب منه وأسأله: هل أنت السندباد؟

يقول بصوت مرتجف بسبب البرد والتعب: نعم، أنا هو، من أنت يا فتى؟

لا أجيبه، ولكن أحتضنه بشكل عفوي، ولا أعلم حقًّا لماذا فعلت ذلك!

أخبر الربَّان بأن يستمرَّ في الإبحار في الاتجاه ذاته، لنصل إلى الجزيرة المنشودة.

تُطِلُّ الجزيرة من بعيد، فأطلب من الربَّان أن يدور حولها، فهذا الجزء المواجه لنا مهجور، وخطِر أيضًا، كما أعرف من القصة التي قرأتها، أما الوجه الآخر فهو مملكة المهراجا، الغنية بالبضائع، والتوابل، والكنوز المختلفة.

قبل نزولنا إلى الجزيرة انفردت بالسندباد، وسألته إذا كان قد رأى فتى يشبهني اسمه حسن، فدهش من ذلك وقال: نعم، وهو محبوس في قبو السفينة؛ لأنه تسلَّل دون علم الربَّان، وكان يقول أشياء غريبة عن أرض الحكايات، وجزيرة على ظهر حوت، وهو ما ثبت أنه حقيقة!

قلت للسندباد: اذهب إلى المهراجا، واحك له حكايتك كاملة؛ فهو يحب سماع حكايات المغامرات، وسيكافئك بسخاء، لا تنسَ أن تأخذ له هديَّة من بضائعك.

أما أنا فتوجَّهت إلى قبو السفينة، ووجدت هناك صديقي حسنًا، أخرجته من محبسه وتعانقنا، ثم جلسنا لنتبادل الأخبار حول ما جرى خلال هذه المغامرة غير المتوقَّعة.

يسألني حسن: وأين ذلك الفتى علاء الدين الآن؟

أجيبه: لا أعلم، فمنذ عودتي إلى عالم الحكايات لم أره أو أسمع به، فغلب على ظني أنه عاد إلى منزله في بغداد.

- ماذا عن الكتاب؟ نحن في أرض الحكايات منذ فترة طويلة، ولا بد أن نرجع إلى عالمنا قبل أن يكتشف أحد غيابنا.

- اطمئن يا حسن، لا بد أن الكتاب سيجد طريقه إلينا، دائمًا يفعل ذلك.

يعود السندباد بهدايا كثيرة منحه إياها المهراجا، ويعود التجار والبحارة بعد أن باعوا كل ما يحملونه من بضائع بأثمان غالية لم يتوقَّعوا أن يحصلوا عليها في يوم من الأيام، بل تزوَّدوا ببضائع زهيدة الثمن على الجزيرة، لكنها تباع بسعر غالٍ في بغداد! إنها رحلة مربحة جدًّا، تمامًا كما قلت لهم!

يقترب منا السندباد وربَّان السفينة، ويقسمان لنا نصيبًا وافرًا من الثروة التي حصلا عليها، ويصرَّان على أن نأخذها؛ فلولا مشورتي ما كانوا ليحصلوا عليها كلها.

أقْبَلُها، فيتعجَّب مني حسن ويسألني: وماذا سنفعل بها؟

أجيبه: لقد وعدتُ علاء الدين أن أعطيه أرباحي من هذه الرحلة، فهي ملكه، وأمانةٌ لا ينبغي أن أفرِّط فيها.

رغم كل الجو المبهج الذي يحيط بنا لكن القلق بدأ يتسلل إلى قلبي، أين كتابي؟

يلاحظ السندباد ذلك فيسألني عن سر توتُّري!

فأجيبه: لقد ضاع مني كتاب مهم، وبدونه لا أستطيع العودة إلى دياري!

يفكر السندباد قليلًا ثم يقول: صفه لي.

فأبدأ بوصف الكتاب، ولون غلافه، وصفحاته، وكيف أنه لا يمكن إغلاقه إلا بيدي أنا.

يضحك السندباد وهو يقول: وكأنَّك تصف هديَّة المهراجا لي! فقد أهداني شيئًا يشبه ذلك!

يُخرج السندباد الكتاب من بين أغراضه فأصيح: كتابي العزيز!

تتغيَّر الخطة الآن، يجب أن نغادر فورًا أنا وحسن؛ لذلك فإني أعطي السندباد كلَّ الأموال التي حصلت عليها، وأخبره بأن يوصلها إلى منزل الفتى علاء الدين في بغداد، ووصفت له المكان بدقة.

ثم ذهبت أنا وحسن إلى مكان بعيد عن أعين البحارة، أمسكت بيد حسن، وأغلقت الكتاب.

أفتحُ عينيَّ وأنظر مباشرة نحو رفيقي حسن، فأجده يبادلني النَّظرات وهو نائم كالمعتاد على سريره، أقول بارتياح: الحمد لله، كل شيء عاد إلى طبيعته.

يردُّ حسن بصوته الضَّعيف المبحوح: الحمد لله، نعم، ولكن هناك أمر صغير يبدو أنَّه قد أفلتَ منك، فهناك فتى يقف بجوار سريرك، وإن لم يَخِبْ ظنِّي فهو.. علاء الدين!

أقولها بدهشة، فقد ظننت أنني أعدته إلى عالمه! ولكن كيف حدث هذا؟!

يسألني حسن: وماذا ستفعل الآن؟

- لا أعلم، لكنَّ الوقت قد فات الآن للقراءة والعودة إلى أرض الحكايات، يجب أن نُخفي الفتى حتى يحلَّ المساء.

أطلبُ من علاء الدين أن يختبئ داخل خزانة الحائط، حجمه الصغير سيساعده في الجلوس فيها دون عناء، وأعطيه بعض الأغذية المغلَّفة وعلب العصير التي تسدُّ جوعه وتبقيه في الدَّاخل لأطول فترة ممكنة.

اليوم سيخفف الطبيب من جبائري التي تمنعني من الحركة والمشي، وأيضًا سأبدأ بجلسات العلاج الطبيعي التي ستُعيد المرونة إلى عضلاتي، في الحقيقة قد أحتاج إليها لفترة طويلة حتى بعد خروجي من المستشفى.

يأتي الممرض ويدفع سريري خارجًا إلى غرفة أخرى، ليتم قصُّ جبائر الجبس بواسطة منشار مخصَّص لهذه الحالة. سعيدٌ لأنني سأتخلَّص من ثقل هائل كان يضغط على جسدي وروحي معًا.

بعد أن يُنهي الطبيب عمله ستتبقَّى جبيرة واحدة تلفُّ ساقي اليسرى؛ فقد تضرَّرت جدًّا من حادث الاصطدام وتحتاج إلى البقاء لفترة أطول داخل الجبيرة.

أنتقل بعدها بواسطة كرسي متحرك إلى غرفة العلاج الطبيعي، هناك أجهزة كثيرة لكنَّني لا أستعمل شيئًا منها، بل يبدأ المعالج معي بتمرينات بسيطة، يدلِّك ساقي، يبسطها ثم يثنيها، يفعل ذلك عدَّة مرَّات، يتأكَّد أنَّني لا أشعر بأي ألم، ثم يُعيد الكرَّة.

رغم سعادتي بهذا التطور المهم في حالتي الصحية، إلا أن القلق يكاد يقتلني على من تركتهم خلفي في الغرفة؛ رفيقي حسن الذي كان التَّعب ظاهرًا على وجهه وصوته الضعيف، وعلاء الدين الذي لا أضمن التزامه بما طلبته منه، وخوفي من أن تتسبَّب تصرُّفاته الطائشة في اكتشاف أمرنا.

رغم وجود عكَّازين معدنيَّين أوصى بهما الطبيب، لكن الممرض يصرُّ على دفعي وأنا جالس في كرسي متحرك، يبدو أنني سأستخدمه لفترة، على الأقل في الأيام الأولى حتى لا تنتكس حالتي.

نمرُّ في طريقنا على آلة بيع العصائر والأغذية الخفيفة، ولكنَّها تبدو تالفة، وزجاجها مكسورٌ أيضًا، نكمل طريقنا إلى الغرفة، أجد سريري ينتظرني هناك، ولكن لا أثر لسرير حسن. يصيبني الفزع، وأسأل الممرض عنه، فيقول لي: اطمئن، إنَّه بخير، سيعود بعد أن يُنهي فحوصاته.

يتركني الممرض جالسًا على وعد بأن يعود ثانية بعد ساعة لينقلني إلى السرير، في الحقيقة لست متعجِّلًا؛ فقد قضيت وقتًا زائدًا عن الحاجة مستلقيًا على ظهري.

يهمُّ بالخروج لكنَّه يتذكَّر شيئًا فيعود قائلًا: من الجميل أن تربطكما علاقة صداقة قويَّة، لكن أرجو ألا تتعلق به كثيرًا، أقول ذلك لمصلحتك.

أعرف ما يقصده الممرض، وأعلم مدى تطوُّر حالة حسن نحو الأسوأ، فجسده لم يَعد يقوى على المقاومة أكثر، وربَّما تكون مسألة أيَّام فقط، لكنَّني سأبقى إلى جواره بقدر ما أستطيع.

يَصدُر صوت ضجَّة غريبة من الخزانة، فأتذكَّر الصبي، أتحرَّك نحوه بكرسيَّ المتحرك وأفتح الباب، ويا لهول ما أرى!

- من أين لك كلُّ هذه الأشياء؟

ينظر الفتى نحوي بحرج ثمَّ يقول بارتباك: عندما تأخرتم في العودة خرجت من الغرفة بهدوء، ووجدت خزانة كبيرة من الزّجاج وفيها هذه الأشياء اللذيذة، ففتحتها وأخذت منها ما يكفي جدَّتي وإخوتي الصغار؛ فهي لذيذة جدًّا، ومن الأنانية أن آكل منها دون أن أطعمهم مثلها.

أضحك بصوت عالٍ.. هذا الفتى يدهشني حقًّا!

- على الأرجح أنَّك كِدت تتسبَّب في مصيبة، لكنَّ لطف الله سبق، ولم يكتشفك أحد، وإلا فكيف سنفسِّر وجودك، بملابسك الغريبة، وشفافية جسدك التي تزداد؟

أساعد الصبي في جمع الأشياء، ونضعها في كيس واحد على أمل أن يتمكَّن من أخذه معه عندما يعود إلى عالمه، أقول له: هذه الأشياء ليست مجانيَّة، وسأدفع أنا ثمنها بدلًا منك، لكن عِدني أن تتوقف عن أخذ الأشياء التي ليست لك بهذه الطريقة، أنت تعرف أنه تصرُّف خاطئ.

يهزُّ علاء الدين رأسه موافقًا، ثم يكمل جمع غنيمته اللذيذة، أتنبَّه إلى أنَّ الوقت قد تأخَّر، ولم يعد رفيقي حسن بعدُ، يزداد قلقي عليه كثيرًا، أطلب من علاء الدين أن يعود إلى الخزانة ويختبئ جيدًا، وألا يخرج منها إلا إذا ناديت عليه.

يأتي الممرض ويساعدني في النهوض من الكرسي والاستلقاء في سريري، في هذه الأثناء، أسمع أصواتًا كثيرة تقترب من غرفتي، الحمد لله، إنّه حسن يرقد على سريره، ويساعده الممرضون في العودة إلى مكانه في الغرفة.

تَقِلُّ الحركة تدريجيًّا في المكان، ويعمُّ الهدوء والسكينة، أنادي علاء الدين، فيخرج حاملًا كيسه الثمين من الخزانة، يجلس على كرسي يتوسَّط الغرفة، ونراقب جميعًا الغروب بصمت.

أفتح كتابي وأسألهما: هل أنتما مستعدَّان؟

يقولان بصوت واحد: نعم.

أُمسكُ بيد الفتى، لعلي أنجح هذه المرة في إعادته إلى عالمه، وأبدأ بسرد حكاية السندباد ورحلاته السبعة.

أستيقظ على أطراف غابة خضراء أشجارها شاهقة، أسمع أصوات حيوانات بريَّة قريبة، قد تكون ضارية، أتلفَّت حولي بحثًا عن رفيقي حسن، فأراه غير بعيد عني، أسعد لذلك، أشير إليه بأن يلتزم الهدوء، وأزحف نحوه بحذر، ونختفي خلف الشجيرات لمراقبة الطريق.

يقترب حيوان ضخم، أستطيع الجزم بذلك نتيجة لاهتزاز الأرض المتناغم مع خطواته، يقترب أكثر فأكثر، وتتضح الرؤية، إنه فيل كبير، أُدقِّق النظر إليه من بعيد فألمح شخصين يركبانه، أحدهما يبدو مألوفًا جدًّا.

أشير إلى حسن لكي يبقى مختبئًا، فأنا سأحتاج إلى مساعدته إن وقعتُ في مشكلة، أستجمع شجاعتي كلها، وأُظهر نفسي للفيل وراكِبَيْه.

يراني الرجلان، فيوقفان فيلهما، ينظران نحوي بدهشة، لوهلة شعرت بأنَّهما يعرفاني، ولكن كيف؟!

ينزل الرجلان، الأول يبدو كبيرًا في السِّنِّ، أما الثاني ففي ريعان شبابه. يقتربان مني، ويعانقني الرجل العجوز دون أن ينطق بكلمة!

يرجع إلى الخلف، فأتأمَّل ملامحه جيدًا، وأصيح: سندباد العزيز!

يتنحنحُ الشَّاب الذي يقف خلف السندباد، ويسألني بخجل: ألم تعرفني يا فارس؟

أحدِّق في وجهه، وأعرفه.. أصيح متعجِّبًا: ولكن كيف؟ لقد تركتك منذ دقائق صبيًّا صغيرًا!

يرد بابتسامة: كبر الصبي يا صديقي، وما تحسبه دقائق هو سنين طويلة بالنسبة لي!

أنادي رفيقي حسنًا، وأخبره بأن المكان آمِن، فيُقبل علينا مبتسمًا.

نكمل الطريق مشيًا بعد أن تركنا الفيل في الغابة، أسأل سندباد عن حاله، وعما حدث بعد أن تركناه في السفينة، فيتنحنح ثم يقول: بعد أن اختفيتما ظنَّ الرُّبَّان وبقيَّة البحَّارة أنَّكما سقطتما في الماء خطأً، انتظرنا وبحثنا عنكما، ولكن لم نجدكما. أبلغت الرُّبَّان بالأمانة التي تركتماها لدي، وأبحرنا من فورنا نحو بغداد، وانطلقنا مباشرة نحو المنزل الذي وصفته لي، رغم تسرُّب الشك إلى قلوبنا، فلم نكن واثقين بوجوده حقيقة.

وصلت إليه، وطرقت الباب، فخرجت إليَّ سيدة عجوز، كما وصفتها تمامًا، وسألتها عن الصبي علاء الدين، وإذا به يُقبِل علينا، وبيده طعامٌ لم أرَ مثله قط، وسألته إن كان يعرفك، فأخبرني عنك وعن رفيقك، وعن العالم الذي انتقل إليه معكما، وعن الغرائب والعجائب التي شاهدها معكما، وأيضًا عن حالكما المريض في ذلك المكان، فأدهشني وأمتعني، وعلمت أن له روحًا مغامرة مثلي تمامًا، فسلَّمته الأمانة، ولما كان صغير السن اشتريت منزلًا له هو وجدَّته وإخوته الصغار، وعيَّنت له مربِّيًا يقوم على شؤونه في غيابي، وتاجرت له بما تبقَّى من المال، وعندما اشتد عُوده صحبته معي في أسفاري، فكان خير مُعين لي.

أستمع بدهشة إلى ما يقوله السندباد، وكأنه يقرأ نصًّا من كتابي الذي يحوي رحلاته كلَّها.

أتذكَّر أن الكتاب لم يصل إلينا بعد، لكنَّني مطمئن، فهو يجد طريقه إلى يدي دائمًا.

نكمل طريقنا نحو قرية الرجل تاجر العاج، فهو -حسب القصة التي قرأتها- يقيِّد حرية سندباد ورفاقه، ويجبرهم على صيد الأفيال مقابل عودتهم إلى بلادهم.

نصل إلى بيت الرجل، يستأذننا السندباد في الدخول وحده، نجلس في انتظاره ريثما يرجع إلينا، فيعود بعد وقت قصير مبتسمًا سعيدًا.

- لقد أنهيتُ الأمر، يمكننا الآن العودة إلى بغداد بأمان، بعد أن أبرمتُ مع التاجر صفقةً لم يستطع رفضها، اشترطت عليه أن أدلَّه على مقبرة الأفيال التي تحوي أطنانًا من العاج الثمين، مقابل سفرنا، ونسبة من كميَّة العاج التي يجدها، وهذا سيدرُّ علينا أموالًا كثيرة!

فرحنا بهذا الخبر، ولكن الحيرة تكسو وجهينا أنا وحسن، فحتى هذه اللحظة، لم نجد كتابي، فكيف سنرجع إلى عالمنا؟

يضحك سندباد عاليًا ويُخرج من عباءته كتابي قائلًا: عندما وقعت عليه عيناي في مقبرة الأفيال علمت أنه لك، فهو يشبه الذي كنت تحمله ليلة اختفائك على السفينة.

ناوَلني إيَّاه، وهو يرجوني أن أصبر قليلًا ليكرم ضيافتنا، لكنني أخبرته بأننا في عجلة من أمرنا، فلا نريد أن يكتشف أحد في عالمنا غيابنا.

ننظر حولنا أنا وحسن، نحاول أن نملأ أبصارنا بالجمال الذي يحيط بنا من كل جانب، فربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي نرى فيها سندباد وعلاء الدين، ونخوض معهما المغامرات الشائقة.

أمسك بيد رفيقي حسن جيدًا، وأغلق الكتاب.

أتوكأ على عكازي، وأنطلق نحو غرفة العلاج الطبيعي، أصبحت أستطيع فعل ذلك وحدي دون الاعتماد على أحد، أقوم بتمريناتي اليومية لتقوية عضلات ساقيَّ وذراعيَّ أيضًا، ثم أعود ثانية إلى غرفتي.

أما حسن فما زال يرقد على سريره، بعد أن زادت حالته سوءًا، وأصبح يتكلَّم بصعوبة، بل إنَّه أصبح يتنفَّس أحيانًا عبر قناع الأكسجين، لضعف قدرته على التنفس وحده.

يُحزنني ذلك، فأحاول تعويضه في مغامراتنا المُشوّقة، عندما تغيب الشَّمس وتهدأ جميع الأصوات، ما عدا ضجيج خيالنا الواسع!

عرَفت حسنًا وتوطَّدت علاقتي به في أرض الحكايات، فهو شجاع وقويٌّ وسريع البديهة، أي أنه شخص يمكن الاعتماد عليه، يرافق ذلك أخلاق عالية وقلب كبير معطاءٌ، ربما هذه صفاته في الواقع أيضًا، لكن لم يُتح لي التعامل معه عن قرب في هذا العالم، في الحقيقة، نحن نحافظ على المسافة التي تتجاوز ثلاثة أمتار بيننا، والستارة المنسدلة معظم النَّهار، أعتقد أنني لو قابلته في المدرسة مثل أي طالبين عاديَّيْنِ لكنَّا أصبحنا أصدقاء بلا شك.

أسأل الممرض عن حالته، فيخبرني بأن هذه الانتكاسة التي يمرُّ بها المريض جزء من دورة المرض، قد يتمكَّن من العودة بعدها إلى حياته الطبيعية بشكلٍ شبه كامل، وربما لا يكون قويًّا بالقدر الكافي للاستمرار، لا يوجد علاج حتى هذه اللحظة، رغم كل التطوُّر الهائل في التقنية والعلم الذي نعيشه، لكن من يدري، لعلَّ أحدًا يكتشف علاجًا قريبًا.

يهمُّ الممرض بالمغادرة، لكنه يعود ويهمس لي: صديقك يمتلك روحًا معنوية عالية، أرجو أن يمنحه ذلك القوة لمقاومة المرض.

في المساء أراقب الغروب وحدي، فرفيق المغامرات مرهق، وهو نائمٌ منذ عدَّة ساعات.

تهطل الثلوج في الخارج، أراها من النافذة، تتساقط ندف الثلج كقطع القطن الصغيرة، لم أستمتع باللعب بالثلج هذا العام، ولم أصنع رجل ثلج مع والدتي كعادتنا، تخطر ببالي فكرة، لماذا لا أذهب إلى حكاية يَهطِلُ فيها الثلج؟

أُمسكُ بكتاب فرانكشتاين، وأقرأ فيه قليلًا، القصة ممتعة، ومخيفة إلى حدٍّ ما، ورغم الخطأ الشائع أنَّ فرانكشتاين هو المخلوق، لكن القصة تذكُر أن فرانكشتاين هو اسم العالِم الذي صنع ذلك الوحش المخيف.

تأخذني الحكاية بعيدًا، فهي وإن كانت خيالية، إلَّا أنَّها لا تبتعد كثيرًا عمَّا يمكن أن يسبِّبه بعضُ البشر من الدَّمار لو أُتيحت لهم الإمكانيات والفرصة.

تسري في جسدي قشعريرة، وأرتجف بشدَّة، وذلك غريب بعض الشيء؛ لأن المستشفى دافئ جدًّا، أحاول التَّدثُّر بغطائي فلا أجده! اختفى، كما اختفى سقف الغرفة، والجدران، وكل شيء آخر.

ملابسي خفيفة للغاية، وأنا الآن على ما يبدو في وسط عاصفة ثلجيَّة تهُبُّ على القطب المتجمِّد.

ليتني أعددتُ نفسي جيدًا لهذه الرحلة، على الأقل كنت ارتديت ملابس ثقيلة! مع أني أظن أنه لا يوجد شيء يمكنه أن يحميني من هذا البرد القارس.

أنظر حولي فلا أرى شيئًا، البياض يغطي المكان، وكميَّات هائلة من الثلج تهطل من السماء، وأنا لا أعرف في أي اتجاه أسير؛ فالثلج على مَدِّ البصر، وليس هناك معالم واضحة لأي بناء قد يكون قريبًا.

أشعر بأطرافي تتجمَّد، فأتكوَّم على نفسي في محاولة بائسة للحفاظ على حرارة جسمي، ولأول مرة، أشعر بأن عقلي غير قادر على التفكير.

أحاول البقاء مستيقظًا، فالنوم خطِر في هذه الحالة، وربما لا أستيقظ منه أبدًا. أغيب عن الوعي دقائق قليلة عدَّة مرات من شدَّة البرد، أشعر في لحظات يقظتي بأنني أنتقل من مكان إلى آخر، لكنني لا أتحرك فعلًا؛ فأنا لا أستطيع قبض عضلة واحدة في جسدي أو بسطها.

تتوقف حركتي، وأسمع أصواتًا بشرية تُشعرني بارتياح شديد، فأترك العنان للنُّعاس لكي يَغلبني.

- أيها الأمير النائم، متى تستيقظ؟

أفتح عينيَّ وإذا بحسن يقف فوق رأسي!

- ولكن كيف؟ لم أعتقد أنَّك سترافقني في هذه المغامرة!

- يبدو أنَّني التصقت بك، لن تذهب إلى أيِّ مكان بدوني.

نضحك معًا، كم أنا سعيد بهذه المفاجأة.

- ولكن كيف عرفت مكاني؟ وأين نحن الآن؟

يجلس حسن إلى جواري ويقول: لم أكن متأكدًا ممَّا حدث في البداية، وجدتُ نفسي على متن هذا المركب، كانوا يُبحرون بشكل اعتيادي عندما هبَّت العاصفة الثلجية، وتجمَّد الماء بشكل كامل، فعَلِقوا بالجليد.

- لكنك لم تجبني، كيف عثرتم عليَّ؟

- في الحقيقة نحن لم نجدك بالضَّبط. بعد أن استوعبتُ مكان وجودي أخبرت الرُّبَّان والبحَّارة بأنك مفقود، لكنهم لم يتشجَّعوا للبحث عنك في هذا الجو المخيف، قالوا لي أنكَ ميت لا محالة، خصوصًا إذا كنتَ ترتدي ملابس خفيفة مثل ملابسي. ولكي يخفِّفوا من شعوري بأنني قد خذلتك قرَّروا البحث في المناطق القريبة، دون أن يتوغَّلوا بعيدًا حتى لا يفقدوا أحدًا آخر من شدَّة البرد، وعند ذلك حدثت المفاجأة!

- أي مفاجأة؟

- عاد أحد الرجال سريعًا وذكر أنه رأى مخلوقًا ضخمًا يجرُّ مزلجة كبيرة تحمل كتلة سوداء لم يتبيَّن ماهيَّتها، لكنَّ الكائن تركها وذهب، ثمَّ اختفى في العاصفة.

- عرفتُه، إنه وحش فيكتور فرانكشتاين، والشخص الذي في العربة هو فرانكشتاين نفسه.

- نعم صحيح، كان فرانكشتاين موجودًا، ولكنك أنت أيضًا كنت متكوِّمًا فوقه، لا بد أنه وجدك في طريقه إلى هنا وقام بإنقاذك!

- ذلك غريبٌ حقًّا، لكنه يدل على أن المخلوق المخيف يمتلك قلبًا رحيمًا، وأن أذاه موجَّه نحو فيكتور تحديدًا؛ لأنه قام بإيذائه أولًا عندما تركه وحيدًا.

يُفتح الباب، ويدخل علينا رجلٌ يرتدي ملابس صوفية ثقيلة تغطيها جلود الحيوانات، قائلًا: إذًا فقد نجوت أيها الفتى! لم أتوقَّع أن تصمد دقيقةً أخرى في هذا البرد الشديد، من حسن حظك وجود صديقك المخلص هنا، لولا إلحاحه لما خرج أحد للبحث عنك في هذه الظروف القاتلة.

كنت أحدِّق إلى وجه الرجل الذي يتكلَّم معي، لم أستطع معرفة من يكون، وكأنَّ حيرتي ظهرت على ملامحي، فاستدرك الرجل قائلًا: أوه نسيت أن أعرِّفك بنفسي، أنا النقيب روبرت والتون،

وأنا في بعثة رسمية لاستكشاف القطب الشمالي.

تظهر على وجهي ابتسامة عريضة، فقد عرفت من يكون هذا الرجل، والدَّور الكبير الذي سيلعبه في هذه الحكاية! فهو سيروي أحداثها كاملة لأخته مارجريت والتون، لكنني ألتزم الصمت؛ فأنا لا أريد إخافته أكثر مما سيفعل فيكتور فرانكشتاين عندما يروي له قصة الوحش!

يغادر روبرت المكان وأبقى أنا وحسن، أسأله بارتباك: هل وجدت كتابي؟

- ليس بعد، لكنه قريب بلا شك، أنت تقول ذلك دائمًا.

- أجل، ولكن هذا البرد القاتل يُغريني بالعودة سريعًا إلى دفء فراشي.

- لا تقلق، سنغادر قريبًا.

يرجع النقيب روبرت وهو يحمل ملابس ثقيلة، وطَبَقًا من الحساء الساخن، يقدمهما لي وهو يقول: هذا الحساء سوف يُعيد الدفء إلى أوصالك، إنها وصفة جدَّتي الخاصة.

- أشكرك يا سيدي على هذا اللطف، ولكن ما أخبار الرجل الآخر الذي وجدتموه معي؟

- لم يكن محظوظًا مثلك، أظن أنه سيحتاج إلى وقت أطول ليتعافى؛ فجسده ضعيف جدًّا، ووصل إلينا شبه متجمد!

أتأسَّف لحال فيكتور، لكنَّني أعلم أنَّه سيعيش، على الأقل لعدة أسابيع قادمة، ثم أتذكر أن أسأل روبرت قبل مغادرته: أرجو المعذرة، هل وجدتم كتابي؟ إنه يبدو مختلفًا قليلًا لكنَّه..

- أوه نعم، ذلك الشيء، كان في الزّلاجة أيضًا، لكنَّه تالف مع الأسف، فقد تجمَّد وهو مفتوح، وتبدو الصفحات ملتصقة ببعضها بشكل قوي!

- لا بأس، أنا أتوقَّع ذلك، لكنني أحتاجه، فله عندي قيمة معنوية كبيرة.

- حسنًا أتفهَّم ذلك، أنت تشبه أختي مارجريت، فهي تحب القراءة كثيرًا، وتعيش بين الكتب حرفيًا، لعلك تلتقيها بعد قليل.

يُكمل روبرت كلامه وهو يغادر: لا تقلق، سأكلف أحد الرجال بالبحث عنه وإحضاره إليك.

- أشكرك جدًّا.

يغادر روبرت المكان، وأبقى أنا وحسن صامتين.

- ربما لن نستطيع فعل شيء لتعديل أحداث هذه القصة، كما ترى نحن نقترب من الخاتمة!

يُطرق حسن برأسه وهو يفكر بصوت عالٍ: لا بد من فعل شيء.

- لا يمكنك إنقاذ الجميع يا صديقي، يكفيك أنك حاولت.

- لن أستسلم، على الأقل ليس قبل أن تنتهي مغامرتنا هنا.

أوافق حسنًا الرأي، وإن كنتُ أميلُ إلى أن الوقت قد فات. أنهض من فراشي نشيطًا، ذلك الحساء الساخن فعَّال حقًّا، فأنا أشعر بالتحسن والدفء أيضًا. يساعدني حسن في ارتداء المعطف الجلدي المبطَّن بالفراء الذي أحضره روبرت، أحاول مدَّ عضلاتي قليلًا، ونقرر الخروج في جولة على المركب.

تنبعث حرارة ملائمة داخل المركب تقلل من قسوة البرد في الخارج، إلا أن الجو لا يزال باردًا، نصل إلى غرفة صغيرة أنيقة بعض الشيء، لا بد أنها غرفة الكابتن، نطرق الباب، ويَسمح لنا بالدخول.

- تفضَّلا، يمكنكما تفقُّد المكان ريثما أعود، بالمناسبة كتابك في الدُّرج الثَّاني من المكتب، يمكنك أخذه.

يقول روبرت ذلك ويخرج لتفقُّد الطاقم، وأبقى أنا وحسن في الغرفة الصغيرة.

لا يبدو حسن متحمسًا لعثورنا على كتاب فرانكشتاين، الذي وضعته فورًا داخل معطفي حتى لا يضيع مني ثانية، لكن شيئًا آخر في الغرفة يلفتُ نظره، فيتوجَّه نحو المكتب ويُبدي إعجابه بأدوات الكتابة.

يقول حسن مبتسمًا: لم أعتقد أنني سأقول ذلك يومًا، لكنَّني أشتاق إلى إمساك القلم.

أجيبه: لِمَ لا تكتب الآن؟

أراقب حسنًا وهو يجلس إلى المكتب ويمسك بالقلم، يحاول الكتابة به لكنَّه لا يتمكَّن من ذلك.

يقول حسن بخيبة: ربما فرغ الحبر، أو هو متجمد!

- لا، انظر إلى جوارك، هناك محبرة، عليك غَمس القلم في الحبر السائل قبل أن تكتب به.

ننظرُ نحن الاثنان نحو الصوت الغريب، تقترب منَّا فتاة تحمل كتابًا بيديها.

أسألها: أنت بالتأكيد مارجريت شقيقة النقيب روبرت.

تردُّ الفتاة: هذا صحيح! لا بد أنه أخبركما عن حُبي الكتب.

يردُّ حسن: نعم لقد فعل، ولم يكن يبالغ! والآن سأجرب تنفيذ تعليماتكِ.

يفعل حسن ما قالته له مارجريت، ويتمكَّن أخيرًا من الكتابة.

ينغمس حسن في كتابة رسالة تبدو موجَّهةً إلى شخص ما بشكل حقيقي، ينتهي ثم يترك الورقة حتى تجفَّ قليلًا، يطويها ويضعها داخل مظروف صغير، ثم بحركة احترافية يشعل شمعة حمراء موجودة إلى جوار المحبرة ويسمح لبضع قطرات من الشمع السائل بالتقطير على مكان إغلاق المظروف المثلث الشكل، ويتركه حتى يبرد.

أسأله باندهاش: منذ قليل لم تكن تعرف كيف تستخدم المحبرة، والآن تغلق المظروف كأي كاتب محترف من القرن التاسع عشر!

يضحك حسن ثم يقول: لقد تذكَّرت هذا المشهد من فيلم لهاري بوتر، وأردتُ أن أجرب هذه الطريقة.

تنظر إلينا مارجريت باستغراب؛ فهي لا تعرف الكلمات التي ذكرناها، مثل «هاري بوتر»، وفيلم!

تسأل مارجريت: ألسنا لا نزال في القرن التاسع عشر، لماذا تتحدثان عنه بصيغة الماضي؟

يظهرُ الارتباك على وجهينا، أنا وحسن، فماذا نقول لهذه الفتاة؟ هل أخبرها بأننا متنقِّلان عبر الزمن؟ ربما لن تستوعب هذه الفكرة، فأول قصص الخيال العلمي التي ستتحدَّث عن آلة الزمن لن تظهر قبل مائة عام أخرى تقريبًا! أم أخبرها بأنها شخصية خيالية في قصة من تأليف الروائية ماري شيلي؟ لا تبدو هذه الفكرة لطيفة أيضًا!

تنظرُ إلينا مارجريت بعد أن رأت الحيرة على وجوهنا ثم تقول: يمكنكما قول الفكرة التي تدور في ذهنيكما الآن، القراءة توسِّع المدارك، وتجعل لصاحبها عقلًا متفتحًا يستوعب ما لا يستوعبه الآخرون! كما أنني رأيتك وأنت تُخفي ذلك الكتاب داخل معطفك، أعرف أنه ليس كتابًا عاديًا، هيَّا.. يمكنكما إخباري.

أتشجع قليلًا، وأهمُّ بإخبارها، لكن يقطع حديثنا صوت ضجَّة قريبة، يبدو أن شيئًا ما قد حدث، ولا تبشِّر الأصوات الفزِعة التي نسمعها بخير!

يقول حسن: لا بد أنه مخلوق فرانكشتاين، علينا أن نصل إليه، قبل أن يصل إليه البحَّارة فيؤذوه، أو يؤذيهم!

تتدخَّل مارجريت في الحديث قائلة: أنا أعرف طريقًا مختصرًا للوصول إلى القبو، اتبعاني، هيا.

تتحرك مارجريت بخفةٍ وسرعة بين ممرات المركب، ونحن نحاول مجاراتها للوصول إلى القبو، نقابلُ في الطريق بعض البحارة الهاربين وهم يتصايحون: وحش، وحش مخيف!

فنعرف فورًا من يقصدون.

تتوقف مارجريت عن الركض فجأة، وتشير نحو سلم صدِئ ينحدر نحو الأسفل وتقول: هناك، ذلك السلم سيوصلكما إليه.

- أشكرك يا مارجريت.

- لا تشكرني يا فارس، أنتما طيبان للغاية، يظهر ذلك على وجهيكما، ربما لم أعرف سِرّكما بعد، لكن من يدري.. ربما نلتقي ثانية، وتخبراني بكل شيء!

قالت مارجريت ذلك وهي تعود أدراجها؛ لتعطينا بعض المساحة والحرية، ألتفتُ نحو حسن وأسأله:

- ماذا تنوي أن تفعل الآن يا حسن؟

- سأذهب لأكلمه!

- لكنه كائن خطِر!

- لو كان كذلك لتركك تموت متجمدًا، هو رغم ما اقترفه من جرائم -لا أبرّرها بأي شكل من الأشكال- لكنها لم تكن طبيعته، أنا وأنت نعرف نهاية هذه القصة، ماذا لو رحلا بسلام وقد سامح كل منهما الآخر؟

أفكر في كلام حسن، ولا أُبدي أي مشاعر؛ فأنا محايد، وسأتركه يفعل ما يراه صحيحًا.

يضع شخص ما يَدَهُ الباردة الثقيلة فوق كتفي فأفزع، وأنظر خلفي، وإذا به رجل لم أره من قبل، يبدو متعبًا، سألته متشككًا: فرانكشتاين؟

يردُّ بصوت مرهق: نعم، وقد سمعتُ كلامكما، وأظن أن صديقك محق، أشعر بأن عمري قصيرٌ جدًّا، وربما يكون من الأفضل أن أُزيحَ هذا العبء عن كاهلي.

يأخذ نفسًا قصيرًا ثم يقول: أرجو أن تذهبا الآن، فأنا لا أضمن النتائج.

يتركنا الرجل، ويهبط نحو القبو وحده، يشير لنا بأن نغادر المكان، ثم يختفي هو والوحش تمامًا.

أنظر نحو حسن وأقول له: حان موعد مغادرتنا نحن أيضًا.

أُخرج كتابي، أتصفَّحه، وأتفاجأ: انظر! إنها صفحات فارغة!

حسن: ماذا يعني ذلك؟

فيكتور فرانكشتاين لم يسرد حكايته للنقيب روبرت والتون، كما أن روبرت لم يلتقِ الوحش، ومن ثَمَّ لم يكتب الرسائل التي تروي القصة! ربما نكون قد نجحنا في إصلاح الأمر بينهما.

- آمل ذلك!

- لم يعد هنالك ما نفعله هنا.

أُمسك بيد حسن، وأُغلق الكتاب.

أحزن لأنني وصلت إلى نهاية رحلتي مع حسن؛ فقد غادر اليوم لتلقِّي العلاج في مستشفى خارج البلاد، بينما سأغادر أنا مع عكَّازين إلى منزلي، كم تبدو الغرفة الخالية واسعة!

شدَّة تأثري عند وداع حسن لم يفهمها أحد، كيف أخبرهم بأنَّنا خُضنا حياة كاملة معًا، وأنا في الحياة الواقعيَّة لم أستطع حتى مصافحته باليد؟!

أبدأ بترتيب أغراضي، أجمع كتبي التي شهدت مغامراتي كلها، لكن يلفت انتباهي شيء غريب! كتاب رحلات جوليفر عاد كأنَّه نسخة جديدة، مع أنه أصيب بتلفٍ شديد خلال رحلتنا إلى عالمه!

أقلِّب الصفحات، فأجد أن جميع الأحداث عادت كما كانت قبل تدخُّلي أنا وحسن، هل هذا معقول؟

تفقَّدت الكتب كلها، ليس هناك أثر لأي تغيير فيها، جميعها تروي الحكايات الأصلية، كأنا لم نَكُنْ! ربما في النهاية كانت رحلاتي كلها أحلامًا عشتها وحدي!

أبدأُ بطيِّ ملابسي، أقوم بنفضها، فيسقط منها مظروف صغير مدموغ بالشَّمع الأحمر.

أحدِّق إليه لوهلة، ثمَّ أتجرَّأ وأمسك به، أفتح الرسالة وأقرأ:

صديقي فارس:

ما قمنا به خلال الأسابيع الماضية ربما لا يصدِّقه عقل، رحلات إلى مدن بعيدة، غيلان ووحوش مخيفة، مغامرات لم أكن أستطيع تخيُّل حدوثها حتى في أكثر أحلامي جموحًا!

خذلني جسدي الضعيف أحيانًا، لكن روحي ازدادت قوة، وهذا ما أحتاج إليه بالضبط لأتعافى!

لا يعلم أحد ما يخبِّئ لي المستقبل، لكن إذا كُتِبَ لي الشفاء فاعلم أنك قد ساهمت في إنقاذ حياتي.

«صديقك حسن»

أطوي الرسالة بحرص، وأضعها في جيبي.

أُنهي ترتيب أشيائي، تطلُّ أمي باسمة لاصطحابي إلى المنزل، أقوم بشيء توقَّفتُ عن فعله منذ فترة طويلة، أدفن رأسي في حضنها وأقول: الآن عرفت لماذا!

-تمت بحمد الله-

فاز هذا العمل في جائزة خليفة التربوية
مجال التأليف التربوي للطفل على مستوى الوطن العربي
في الدورة السادسة عشرة 2023